



مراجعات

ملحق شهري تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالتعاون مع «الرؤية»

جمادى الأولى 1440 هـ - يناير 2019 م

الصفحة الأولى...

هلال الحجري

في السنة الماضية أفسحت هذه الافتتاحية لتلخيص الرسائل العلمية التي أنجزها العمانيون في الجامعات البريطانية والأمريكية. وبداية من هذا الشهر سأخصص هذا العمود الموجز لبعض القضايا النقدية في الأدب العماني، وسأبدأ بمفهوم الشعر لدى الشاعر والعلامة الكبير نور الدين السالمي رحمه الله.

يقول الشيخ السالمي في كتابه (المنهل الصافي على فائق العروض والقوافي) معرفاً شعر العرب:

«هو كلامهم الموزون. والشعر في اللغة بمعنى العلم والفهم، وفي العرف قال الخليل: هو ما وافق أوزان العرب. وزد بأن مقتضاه أنه لا يُسمى شعراً ما خرج عن أوزانهم، بل وأن لا تكون أوزان العرب نفسها شعراً؛ إذ الموافق للشعر غيره، فلو دخلت أوزان العرب فيه لزم مغايرة الشيء لنفسه، وهو باطل. قلت: المراد بأوزان العرب الهيئة التي يُقَدَّرُ الشعرُ بإزائها لا نفس الشعر، وأيضاً، فالغرض تعريف الشعر المعروف عند العرب، وهم لا يسمون ما عدا ذلك شعراً، فلا وجه للرد. وعرفه بعضهم بأنه الكلام الموزون المقصود به الوزن المرتبط معنى وقافية. فخرج بالقصد إلى الوزن ما وقع في القرآن والحديث من آيات وكلمات موزونة، فإنها لم يقصد بها الوزن، وإنما وقعت كذلك موافقة، قال تعالى: «وما علمناه الشعر وما ينبغي له، فلا يصح أن يُطلق عليه اسم الشعر».

وبهذا يكون الشيخ السالمي قد أعطانا تصوره للشعر، وهو تصور حذر في رأبي، لا يقتصر على المفهوم التقليدي للشعر، والمتكرر عند القدماء وهو «الكلام الموزون المقفى». الشيخ السالمي هنا في هذا التعريف يُشدد على شرط التصدية، فليس كل كلام موزون يعد شعراً، ولا فإن ذلك سيقودنا إلى إشكال كبير أشار إليه الشيخ في تعريفه، وهو وقوع بعض آيات القرآن، أو الأحاديث في كلام موزون، ولا يمكن عدّها بحال من الأحوال شعراً؛ لقول الله تعالى في نبيه عليه السلام «وما علمناه الشعر وما ينبغي له».

وهذا في الحقيقة يدل على وعي السالمي بخصوصية الشعر، ليقول لنا إن الشعر، كما يراه، ليس تعبيراً عفويًا، ولكنه يأتي عن تفكير متأن وخيال عميق. إنه كما وصفه ابن جني بقوله: «سمي الشعر قصيداً؛ لأن قائله جعله من باله قصداً له قصداً ولم يحسبه حسياً على ما خطر بباله وجرى على لسانه بل روى فيه خاطره واجتهد في تجويده ولم يقتضبه اقتضاباً فهو فعل من القصد وهو الأم».

وفي موضع آخر من كتاب (المنهل الصافي) يُحدد الشيخ السالمي مفهومه للشعر من حيث موضوعاته فيقول مناقشاً مسألة البسملة في الشعر: «لا يقال إن الشعر لا يبدأ فيه بالبسملة؛ لأنها من القرآن، ويجب تنزيه القرآن عن ملامسة الشعر؛ لأننا نقول: إن الشعر الذي يجب فيه ذلك هو الشعر المذموم الذي ورد في مدح غير المستحق أو ذمه، أو أنشئ في معنى الغزل والهزل والتشبيب، ونحو ذلك من فنون الشعر».

وهذا في الحقيقة نص محير؛ لأنه لا يجزم لنا بموقف الشيخ السالمي صراحة من أغراض الشعر التي ذكرها وعدها من الشعر المذموم، وهي الغزل، والهزل، والتشبيب، والمدح غير المستحق؛ لأنه إنما ذكرها في معرض عدم جواز البسملة عليها، ولا يصح بتحريمها، أو كراهيتها لها.

نقول ذلك لأن الشيخ في كتابه القيم «تحفة الأعيان» نقل أبياتاً غزلية منسوبة لسعيد بن الإمام أحمد بن سعيد، بل وصفه بأنه «كان أدبياً لبيباً، معدوداً من أدباء عصره». كما أن الشيخ السالمي نقل لنا أيضاً في هذا الكتاب قصائد في الفخر للشاعر سليمان بن سليمان النهدي، وقال عنه بأنه «هو صاحب الديوان الغزلي الحماسي أنبأ فيه عن فصاحته وأبان فيه عن بلاغته»، بل إنه امتدح رائيته التي مطلعها:

ألدار من أكناف قو فرعر ×× فخبث النقا، بطن الصفا، فالشقر

ووصفها بقوله: «وله رائية ذكر فيها مفاخر أجداده تراحم العلاقات السبع بلاغة وتزيد عليها عنوية ورشاقة».

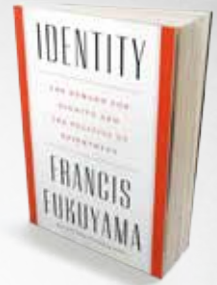
وبهذا الموقف النقدي الأدبي الثاقب للشيخ السالمي وموقفه من ديوان سليمان بن سليمان النهدي، وهو ديوان جل شعره غزل وتشبيب بالمرأة ومفاتها على طريقة الجاهليين العرب، أستطيع القول إن الشيخ السالمي لم يكن رافضاً لأغراض الشعر المعروفة عند العرب من فخر، وغزل، ومدح. وأما رأيه السابق في كتاب «المنهل الصافي»، فيمكن حمله على تحريمه لذكر البسملة على هذه الأغراض، وهو موقف فقهي خاص بذلك.



• الرغبة المطلقّة في النمو
• دانيال كوهين



• ورثة ماو
• إيغناسيو موزو



• الهوية مطلب الكرامة
• وسياسة الضغن
• فرانسيس فوكوياما



• الأطفال والعائلات
• مجموعة مؤلفين



• غواصة الإسكندر
• جماعة من الباحثين



• التلاعب بالوعي
• سيرغي كارا مورزا



• الإسلام - تشريح الخوف
• أدريان شادكوفسكي



• لماذا لم يوجد عصر إسلامي وسيط
• توماس باو



• صور من تقاليد
• لنشاشي بهوشان



• داروين في المدينة
• مينو سخيلتهاوزن

إصدارات عالمية جديدة



صفحة 22 و 23



الهوية مطلب الكرامة وسياسة الضغن فرانسييس فوكوياما

محمد الشيخ *

مَنْ ذا الذي يذكر أنّ المفكر الأمريكي من أصل ياباني فرانسييس فوكوياما . صاحب الأطروحة الشهيرة والمثيرة للجدل حول «نهاية التاريخ» . أتى بالذكر، في أطروحته هذه، ومنذ أزيد من ربع قرن، على اسم الرئيس الأمريكي الحالي دونالد ترامب، وكان الرجل لا يزل آنذاك رجل أعمال طموح إلى تحقيق الاعتراف بذاته وبِعظمتِه المتنفجة؟ بل مَنْ ذا الذي يذكر أنّ فوكوياما كان قد جعل من دونالد ترامب حينها رمز الرغبة في حياة الاعتراف من داخل عالم سوق الاقتصاد لا من سوق السياسة؟ إذا أنت لم تذكر ذلك، فما عليك إلا أن تُعيد تصفح الكتاب المذكور، فلا شك لن يضيع جهدك سدى؛ ثم تستأنف النظر، فتصل قراءتك التصفحية هذه بقراءة كتاب فرانسييس فوكوياما الجديد هذا . الهوية: مطلب الكرامة وسياسة الضغن [الحقد المبني على الحسد] (٢٠١٨).

على كتابيه اللاحقين لأطروحته: أصل النظام السياسي (٢٠١١) والنظام السياسي والانحطاط السياسي (٢٠١٤). الذين يُعدان محاولة منه لإعادة كتابة «نهاية التاريخ وخاتمة البشر». وعنده أن التعديلين اللذين حدثا هما: ١- صعوبة تطوير دولة حديثة لا يطغى عليها الطابع الشخصي. الأوتوقراطي. ٢- إمكان انحطاط ديمقراطية ليبرالية حديثة أو عودتها إلى الخلف. ويرى فوكوياما أن نقاده تناسوا أمراً مهماً: لقد تناسوا أن المقالة الأولى . أصل الأطروحة . كانت تحمل علامة استفهام في نهاية عنوانها . «نهاية التاريخ؟». كما أنهم لم يقرأوا الفصول الختامية من كتاب «نهاية التاريخ وخاتمة البشر» الذي ركز كثيراً على فكرة «آخر إنسان» عند نيته. وفي الموضوعين معاً يذكرنا فوكوياما أنه كان قد شدد على أنه لا القومية ولا الديانة توشكا أن تختفيا من حيث إنهما قوتان فاعلتان في سياسة العالم، وهما ليستا على وشك فعل ذلك، لأن الديمقراطية الغربية لم تحل نهائياً مشكلة «التيمسوس»؛ أي ذلك الجزء من النفس البشرية المتعشش إلى الاعتراف وإلى الكرامة، وقسميه: القسم الراغب في الاحترام كأساس مساواة مع بقية الناس، والقسم الراغب في أن يحوز الإنسان الاعتراف بأنه الأعظم والأقوى والأعلى. ففي ما يخص القسم الأول، الحال أن الديمقراطيات الحديثة إذ تعد وتوفر توفيراً واسعاً درجة أدنى من الاحترام المتساوي، المتجسد في الحقوق الفردية، وسيادة القانون، والحق في التصويت، فإن ما يعد غير مضمون فيها هو أن يكون الناس، في الممارسة الفعلية، قد نالوا الاحترام على وجه المساواة، لا سيما منهم أعضاء جماعات ذات تاريخ من التهميش. هو ذا ما فشلت الديمقراطيات الغربية في تحقيقه، وهو ذا منبع الداء أيضاً: بلدان بأكملها يمكن أن تشعر بأنها لا تنال الاحترام المستحق، فتبدي نزعة قومية استعدادية عدوانية. كما يمكن أن يحمل على فعل ذلك المؤمنون المتدينون قد يشعرون أن دينهم قد أنكر عليهم، ومن ثمة، فإن الرغبة في أن يحظى المرء بالاحترام يمكن أن تستمر في قيادة مطالب الاعتراف على سبيل المساواة، والتي هي مطالب يبدو أنه لا يمكن إرضائها إلا بالإرضاء النهائي التام.

التشريع، وسائل الإعلام المستقلة، الجهاز الإداري غير المتحزب، ويقدم مثالا عن ذلك بيوتين في روسيا، وأردوغان في تركيا، وأوروبا في هنغاريا، وكازينسكي في بولندا، ودوترتي في الفلبين. والسؤال الذي يُحير فوكوياما هو: كيف لأنظمة سعت إلى نشر الديمقراطية الليبرالية في العالم أن تعود القهقري لتتكفئ بدورها على قومية ضيقة؟ وهكذا ينشغل فوكوياما انشغالاً بتحليل ما كان سماه الباحث السياسي لاري دايمن منذ أزيد من عقد من الزمن «تراجع الديمقراطية». ويستأهل عما إذا كان هذا التراجع السائد اليوم سوف يتحول إلى أزمة ستشكل منعطفاً نحو طراز آخر من النظام السياسي؟ أم أنّ الأمر لا يعدو أن يكون رجة خفيفة تشبه تلك التي تصيب البورصة، ثم سرعان ما تستعيد الديمقراطية عافيتها؟ يجد الكتاب منطلقه من تلك الحادثة، ويغوص في هذه المعضلة، وفي ما يبدو أنه مراجعة فوكوياما لأطروحته حول «نهاية التاريخ»، يذكرنا بأنه سبق له أن نشر بحثه «نهاية التاريخ؟» أواسط عام ١٩٨٩، وهو البحث الذي طوره إلى كتاب «نهاية التاريخ وخاتمة البشر»، والذي نشره عام ١٩٩٢، وأن السؤال الذي لطالما كان يوجه إليه هو ما إذا كان هذا الحدث أو ذاك قد فند أطروحته؛ بما في ذلك حدث انتخاب ترامب وموجة انتشار الشعبوية. ويرد على ذلك بأن معظم هذه الانتقادات إنما بنيت على سوء فهم. ذلك أنه كان قد استعمل لفظ «التاريخ» بالمعنى الهيغلي-الماركسي؛ أي بمعنى مروية تطور مؤسسات الإنسان على المدى البعيد، والتي يمكن أن تسمى طورا «نموا» وطورا «تحيثا». أما كلمة «النهاية»، فما استعملها قط بمعنى «نهاية الأمر وختامه» وإنما بمعنى «مآله» و«غايته» أو «بغيتة». وإذا كان ماركس قد أوحى بأن غاية البشرية تتحقق تحققها الختامي على شاكلة مدينة فاضلة من الصنف الشيوعي، فإن فوكوياما انتصر للنسخة الهيغلية التي تقول بأن التطور أو النمو ينتهي إلى دولة ليبرالية مرتبطة باقتصاد السوق. وهي النسخة عن خاتمة التاريخ التي بدت أكثر مصداقية. على أن هذا الأمر لا يعني. وهذا إقرار عجيب من الرجل. أن نظرتة لم تتغير على مر السنين، وهو يدعونا إلى أن نلقي نظرة

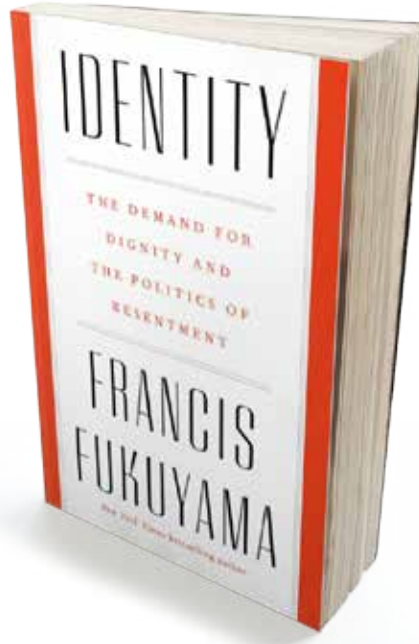
وها هو هذا المؤلف المثير للجدل يعود اليوم لكي ينضم إلى لائحة العديد من المفكرين والفلاسفة الذين هاجموا ترامب بأشد مهاجمة تكون. أكثر من هذا، ها هو يعلن، في مقدمة كتابه الجديد، الإعلان الغريب التالي: «ما كان لهذا الكتاب أن يكتب لو ما كان دونالد ترامب انتخب رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية في شهر نوفمبر من عام ٢٠١٦، وها هو المنتهى بنهاية التاريخ يقر بأنه فوجئ بنتيجة الانتخابات، وبما هو سائر من الترتب عن ذلك من عواقب على الولايات المتحدة الأمريكية وعلى العالم، وقد ضم هذا الاقتراع إلى اقتراع ثانٍ مفاجئ بدوره هو الاقتراع البريطاني على الانسحاب من الاتحاد الأوربي، لقد ناهض ترامب «المؤسسة الرسمية»، بعد أن تبرم الناس مما يسميه فوكوياما «حكم الاقتراع»، الذي يسمح لمصالح جماعات الضغط بأن تعطل مصالح الناس. والذي عند فرانسييس فوكوياما هو أن معضلة ترامب معضلة مزدوجة: معضلة في سياسة الرجل، ومعضلة في طبعه. من جهة، ثمة نزعة ترامب الاقتصادية القومية التي من الأرجح أن تضر أكثر مما تنفع أولئك الذين يؤيدونه، وتفضيل ترامب طراز الرجل السياسي القوي على حلفائه الديمقراطيين؛ وهو الشيء الذي يعد بزعة استقرار العالم، ومن جهة أخرى، ما كان من الممكن تصور رجل سيئ الطباع كهذا فظ غليظ رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية، رجل يجد فوكوياما أنه يفترق إلى ما ينبغي أن يتوفر في الزعيم السياسي العظيم . النزاهة والمصداقية والروية وخدمة المصلحة العامة والبوصلة الأخلاقية الموجهة. رجل أمضى سحابة عمره في الدعاية لنفسه دعاية فجة. والحال أن ترامب، عند فوكوياما، إنما يمثل نزعة عالمية أخذة في التوسع: القومية الشعبوية. ويسعى الزعماء الشعبويون إلى استعمال المشروعية التي أكسبتها إياهم الانتخابات الديمقراطية بغاية تعزيز سلطتهم، وهم يتهجون سياسة التواصل الكارزمائي المباشر مع «الناس» يقربون قوماً منهم ويقصون أقواماً. وهم لا يحبون المؤسسات، ويطمحون إلى إحداث الخلل في موازين القوى التي تحد من السلطة الشخصية في ديمقراطية ليبرالية: المحاكم،



ذلك، يركز على جماعات محصورة أكثر فأكثر، ومهمشة بتمهيش خاص، وبالنسبة إلى بعض التقدميين، فإن سياسة الهوية صارت تلعب دور منتج بديل رخيص الثمن ينتج كل فكر جدي يسعى إلى قلب نزوع عمر ثلاثة عقود، في أغلب الديمقراطيات، ويحل محل أشكال التمييز الاقتصادية والاجتماعية، والحال أن هذا الخطاب يجد صدى له في خطاب اليمين حول المواطنين المسيئين وحول النخب المحتقرة. وينبه فوكوياما إلى أن الانغلاق في وضع هوياتي منكمش على نفسه يشكل جواباً سيئاً على مشكلة تززع وضع الطبقات الوسطى والشعبية في البلدان الغربية، تلك الطبقات التي أمست تشعر بأنها مهددة بفقدان موقعها. وهي التي لعبت دوراً كبيراً في انتصار ترامب أو في خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي. أما البديل الذي يقترحه فوكوياما، فإنه يتمثل في الاستعاضة عن سياسة الهوية بإعادة تعريف الهوية القومية على أساس من المواطنة والاندماج والسياسات الاجتماعية الطموحة. هي إذن رؤية للهوية أكثر انفتاحاً، ولا ترتحن فقط إلى «صدفة الولادة».

الاعتراف؛ ومن ثمة لا يمكن أن يتم إرضاءه باعتماد الوسائل الاقتصادية. هذا ما ينبغي أن نفهمه ونحن أمام واقع الشعبوية اليوم. ويذكرنا فوكوياما بأنه حسب ما كان قد ذهب إليه هيجل، فإن ما قاد التاريخ إنما هو المعركة من أجل انتزاع الاعتراف، وقد ذهب الفيلسوف الألماني إلى أن الحل العقلاني الوحيد للرغبة في الاعتراف هو الاعتراف الكوني الشامل، حيث يتم الاعتراف لكل إنسان بكرامته، لكن هذا الاعتراف الشمولي الكوني، أمست اليوم تتحدها أشكال جزئية من الاعتراف مبنية على الأمة والدين والطائفة والعرق والنوع، أو طلب الاعتراف من أناس يريدون أن يعترف لهم بالتفوق، ومن ثمة، كان بزوغ سياسة الهوية، في الديمقراطية الليبرالية الحديثة، أحد التهديدات الكبرى التي تواجهها هذه الديمقراطية، وأطروحة فوكوياما الأساسية في هذا الكتاب أنه ما لم نعد إلى مزيد فهم كوني لكرامة الإنسان، وبقينا متشبثين بسياسة الهوية، فإننا نحكم على أنفسنا بأن نبقي سجناء نزاعات موصولة لا تفتقر وصراعات لا تكل.

وإذن، يحمل فوكوياما جزءاً من المسؤولية في ما حدث إلى المبالغات التي طالت سياسة الهوية؛ أي إلى تلك السياسة الدائرة على مطلب الأفراد والجماعات بهويات ثابتة، أكثر مما يتعلق الأمر بمطلب منزلة اجتماعية، اقتصادية، ويلاحظ أن الفاعلين السياسيين . يسارا ويمينا. قد ساهموا في بدو سياسة الهوية بدل سياسة العدالة التوزيعية. لقد أمسى اليسار يركز أقل شيء على المساواة الاقتصادية، بالمعنى الواسع، وأصبح، بالبدل من ذلك، يشدد أكثر شيء على مصالح مروحة واسعة من الجماعات التي باتت تدرك أنها قد تم تهيمشها، فكان أن استحالت المطالب الاجتماعية إلى مطالب هوياتية؛ هذا بينما أمسى اليمين يعيد تعريف نفسه بنزعة قومية، باحثاً عن حماية الهويات القومية التقليدية، والتي غالباً ما يربطها صراحة بالعرق والجنس والدين، وتكمن مشكلة اليسار المعاصر في تبنيه للأشكال الخاصة للهوية والتي صار يختار أن يلتفت إليها أكثر من غيرها، وذلك بدل أن يتبنى اليسار مطالب أشكال تضامن حول تجمعات كبرى، غير هوياتية، شأن «الطبقة العاملة، مثلاً، أو أولئك «المستغلين اقتصادياً». وها هو، بالبدل من



وفي ما يخص القسم الثاني، فإن المشكلة الأخرى هي مشكلة الرغبة في الاعتراف للمرء بعظمته، ذلك أنه إذا حق أن الديمقراطيات الليبرالية قد وفرت السلام والازدهار (بدرجة أقل في السنوات الأخيرة)، فإن المجتمعات الثرية الأمنة أمست مجال حياة إنسان نيتشه الأخير، بحيث بتنا أمام أناس يزجون أوقاتهم في المتع الاستهلاكية، بلا شيء يملأ أفئدتهم، بلا اعتقاد ولا شعور، كما يقول نيتشه، لا أهداف لهم ولا مثل يسعون إليها أو يضحون من أجلها. وحياة هذا شأنها. ولا شأن لها على التحقيق. لن يرضى عنها أي أحد. ومن شأن رغبة الاستعظام أن تزهر في الاستثناء: فإذا المرء يريد الإقدام على مخاطر كبرى، والدخول في معارك ضخمة، والبحث عن إحداث آثار وفرقعات واسعة؛ لأن كل هذا يؤدي به إلى تحصيل الاعتراف للذات بأنها أعلى من الآخرين. والحق أنه في بعض أطوار التاريخ أثمرت هذه الرغبة عن زعيم بطل، على شاكلة لينكولن أو تشرشل أو مانديلا، لكن في أحيان أخرى أنجبت طغاة، شأن قيصر أو هتلر أو ماو، قادوا مجتمعاتهم إلى الديكتاتورية وإلى الكارثة، والحال أنه ما أن توجد هذه النزعة في مجتمع من المجتمعات، حتى لا يمكن تجاوزها التجاوز كله، وإنما قصارى ما يُقدر عليها معها أن يتم تقييدها وتلطيفها.

ويذكرنا فوكوياما مرة أخرى بأن المسألة التي كان قد طرحها في الفصل الأخير من كتابه عن «نهاية التاريخ»، تمثلت في التساؤل عما إذا كان نظام الديمقراطية الليبرالية الحديث، المرتبط باقتصاد السوق، سوف يوفر منافذ ومخارج للراغبين في أن يُعترف لهم بذواتهم ويتفوقهم، وكان قد أشار في عام 1992 بأنه يمكن لاقتصاد السوق أن يوفر ذلك، إذ من شأن رجل أعمال أن يصير ثرياً ثراء فاحشاً، وأن يشارك في الوقت نفسه في الازدهار العام. وهنا أشار، بالفعل، إلى دونالد ترامب باعتباره مثالاً لطموح فردي عجيب يرغب في نيل الاعتراف وقد ارتبط بعالم التجارة والأعمال. وما كان فوكوياما، وهو يخط ما خطه، يراوده حتى أدنى ظن، بعد مضي خمس وعشرين سنة، في أن رجل الأعمال هذا لن يرضى بالنجاح في الأعمال وبالشهرة، وإنما سوف يلج إلى عالم السياسة، بل وسوف ينتخب رئيساً لبلده، على أن فوكوياما لا يرى أن هذا الحدث يعارض الحجة العامة التي دافع عنها: أجل لقد وجد دوماً مثل هؤلاء. قيصر وهتلر وبيرون. الذي قادوا مجتمعاتهم إلى التهلكة، على أن جديد تحليله، هنا، هو أن من شأن هؤلاء، لكي يدفعوا بأنفسهم إلى الأمام، أن يستثمروا ضغائن الناس الذين يشعرون أن أمتهم أو ديانتهم أو طريقة عيشهم لم يتم احترامها، وهنا يلتقي النزوع إلى أن يتم الاعتراف للمرء بتفوقه بنزوع المرء إلى حيازة احترام الغير.

وفي هذا الكتاب يؤوب فوكوياما إلى المواضيع التي كان قد استشكلها عام 1992: التيموس، الاعتراف، الكرامة، الهوية، الهجرة، القومية، الدين، الثقافة، ويرى أن المفهوم الناظم لمعظم ما يجري في عالم السياسة اليوم هو مطلب أن يُعترف لإنسان معين أو جماعة بهويته، وما كانت الهوية هنا مقصورة على الهوية السياسية، كما تمارس في باحات الجامعات، أو ما تثيره القومية البيضاء، وإنما أمسى مطلب الهوية ينتشر ليشمل ظواهر أوسع، مثل بزوغ موضة القومية القديمة والإسلام السياسي ... ومعظم ما يبدو ظاهرياً على أنه محرك ومحرض اقتصادي، إنما يجد جذوره في طلب

الكتاب : الهوية: مطلب الكرامة وسياسة الضغن
اسم المؤلف : فرانسيس فوكوياما
دار النشر:
Farrar, Straus and Giroux;
سنة النشر:
11 1st Edition edition (September 2018)
عدد الفصول : ١٤ فضلاً عن تقديم وهوامش
وببليوغرافيا وكشاف.
عدد الصفحات : ٢١٤

* أكاديمي مغربي



ورثة ماو: الاقتصاد والمجتمع والسياسة في عهد الرئيس شي جين بينج.. لإيغناسيو موزو

عزالدين عناية *

يُحاول كتاب «ورثة ماو» الإجابة عن سؤال محوري؛ وهو: كيف نفهم نهضة الصين الاقتصادية اليوم؟ حيث يسلط الكتاب الضوء بالأساس على العقود الثلاثة الأخيرة من تاريخ الصين المعاصر. وبوضوح ودقة، يتتبع الإيطالي إيغناسيو موزو الثلاثين سنة الأخيرة من تاريخ الصين، وما تضمّنته من إصلاحات اقتصادية جوهرية، وهي فترة ما بعد الزعيم ماو تسي تونج التي جعلت من الصين في عهد شي جين بينج قوة اقتصادية، وإن تخلّلتها جملة من التناقضات على المستويين الاجتماعي والسياسي. صحيح ما تعيشه الصين في الوقت الحالي من نهضة، وما تشهده من تمدد لنفوذها الاقتصادي، يعودان إلى ما هو أبعد من تلك الفترة، ولكن المؤلف الإيطالي إيغناسيو موزو يحاول أن يسلط الضوء على فترة محورية وراء النهضة الاقتصادية. وللذكر، مؤلف الكتاب إيغناسيو موزو هو أستاذ الاقتصاد السياسي في جامعة كافوسكاري في البندقية، وهو عضو الهيئة العليا للبنك المركزي الإيطالي، وأحد المنتسبين لأكاديمية لنشيبه المرموقة في إيطاليا. ألف جملة من الأعمال المتعلقة بالاقتصاد، ومن إصداراته في السنوات الأخيرة «الصين المعاصرة» (٢٠١١)، و«الدين العمومي» (٢٠١٢).

من رجال الأعمال الصينيين، غدوا ناشطين وفاعلين على نطاق عالمي، مع ذلك لم يتنكروا لهيمنة مؤسسات الدولة على القطاعات الإستراتيجية. وفي التاريخ الراهن، يحوز اقتصاد الصين مرتبة متقدمة على مستوى عالمي؛ حيث نجد مائة شركة من جملة خمسمائة شركة عالمية كبرى هي شركات صينية، ناهيك عن تخطي الناتج المحلي الإجمالي للصين الناتج الأمريكي، وإن يصعب تصنيف الصين ضمن الدول الغنية. فلا يزال الناتج القومي للفرد الصيني دون مستوى المعدل العالمي، وهو ما يساوي ربع ناتج الفرد الأمريكي تقريبا. مع هذا يواصل المجتمع والاقتصاد الصينيان التحول بنسق متسارع، وبشكل ليس له نظير في تاريخ الاقتصاد العالمي السابق؛ فنحن أمام مشهد بلد يعيش تطورا مطردا من حيث لعب دور نافذ على نطاق عالمي، وتتولى زمام أمره قيادة تتشابه من عديد الأوجه مع القيادة التاريخية لماو تسي تونج من حيث التأثير والكاريزما والسلطة.

لا بد أن نعي -كما يقول إيغناسيو موزو- أن عقودا من المعاناة والخضوع قد دفعت الصين إلى شق مسار ثوري أصيل ومتميز عن كافة المنافسين العالميين الآخرين. فانطلاقا من إصلاحات دانغ سنة ١٩٧٨، وبرغم مختلف المصاعب والتناقضات الحاصلة، دشنت الصين مسار تحديث اقتصاديا رسمت من خلاله معالم انفتاح على الأسواق العالمية، وخاضت مسار تطور علميا وتقنيا، وهي اليوم تجابه مقتضيات العولمة بشكل عملي دون أن تهجر المبادئ التي قامت عليها الثورة أو تتنكر لها. فقد تمّ

الصيني على نطاق عالمي، كما يتوقف إيغناسيو موزو عند عود الطرح الصيني بشأن طريق التحرير الجديد، كما يعالج هذا الفصل الثقل المتزايد للاستثمارات في العالم ومساعي عولمة العملة الصينية، وأثر ذلك على علاقة البلد بمختلف دول العالم. ولا يغفل المؤلف في هذا الفصل الحديث عن علاقات الصين المتينة بدول آسيا وبالخصوص طبيعة علاقتها بالولايات المتحدة وأوروبا. لقد جاء تحول اقتصاد الصين نتاج إصلاحات حازمة انطلقت في مرحلة أولى مع دينغ شياو بينج (أواخر السبعينيات ومطلع الثمانينيات)؛ وذلك عقب رحيل ماو. كان دينغ شياو بينج نافذا بتوليّه موقعا محوريا داخل نظام الحزب. وبفضل نفوذ الرجل، صعد زهاو زيانغ لتولي رئاسة الحكومة وعبره استطاع أن يمرّر إصلاحات اقتصادية جوهرية، ثم تتوجّه رأسا نحو الصناعة، بل استهدفت الزراعة في مرحلة أولى، وهو ما سمح بنوع من حرية السوق المراقبة من قبل الدولة، وما خلق مؤسسات موازية (مؤسسات المدن والقرى) وشملت قطاعات أخرى قريبة، أدخلت حركة مهمة على الاقتصاد الصيني. في حين جاءت المرحلة الثانية من حزمة الإصلاحات مع جان زيمين (أواخر الألفية الثانية ومطلع الألفية الثالثة)، وشملت إعادة تأهيل المؤسسات الرئيسة للدولة، المحرك الأساس للاقتصاد الصيني. وهي الفترة التي شهدت في الغرب آمالا بتحول الصين إلى اقتصاد السوق، بما هدف في الحقيقة إلى خلق نظام مرتّهن للغرب. وكانت المرحلة الثالثة من الإصلاحات مع الرئيس هو جينتاو (٢٠٠٣-٢٠١٢)، الذي تواصل معه ظهور كوكبة

يُوزع الأستاذ إيغناسيو موزو كتابه إلى ستة فصول، يستهلها بمقدمة، ويشفعها بخاتمة بمثابة حوصلة واستشراق. يحاول الكاتب أن يبرز منذ مستهل كتابه أن النهضة الصينية الحالية ما كانت لتتحقق لولا الخمس وثلاثين سنة من الإصلاحات الاقتصادية التي ميّزت حقبة ما بعد ماو تسي تونج، وهو ما عالجها الفصل الأول من الكتاب وسعى في التطرق إلى تفاصيله. في حين يتوقف الفصل الثاني عند شخصية الرئيس الحالي شي جين بينج (٦٥ سنة)، الذي يتولى أيضا منصب سكرتير الحزب الشيوعي. ثم يتناول حضور شي جين بينج داخل النظام السياسي المؤسساتي الصيني، فضلا عن مساعي الرجل لمكافحة الفساد، ولا يغفل الكتاب عن توضيح رؤيته الأيديولوجية، مع متابعة دوره في الحزب وخصائص مشروعه الجيوسياسي.

وفي الفصل الثالث من الكتاب، يعالج الكاتب التحولات التي شهدتها اقتصاد الصين في عهد شي جين بينج، ويحاول أن يسلط الضوء على الظاهر والخفي في مسار التطور، من خلال عرض العلاقة الرابطة بين مقتضيات سياسة السوق وسياسة الدولة داخل السياق الصيني. وفي الفصل الرابع، يناقش التحديات التي تواجه الرئيس شي جين بينج، مع التطرق إلى مظاهر الاختلال في الصين على المستويين الاجتماعي والبيئي. أما الفصل الخامس، فيركز في تحليل مخاطر عدم الاستقرار التي تتهدد الاقتصاد الصيني، لا سيما مخاطر إصلاح النظامين البنكي والمالي. وفي فصل أخير -الفصل السادس- ينشغل الكاتب بتقديم نظرة شاملة عن الدور



بانبعاث الصين مجدداً مع أباطرة أواخر القرن التاسع عشر؛ إذ ثمة خشية من الرجل بفعل إنجازاته المذهلة. فقد غادرت الصين معه مرحلة السير في طريق النمو إلى السير في طريق تركيز دعائم الاقتصاد المتطور، وهو ما جعل الصين بلد القفزة التقنية، كما لم يتوان الرجل في إعطاء المبادرة الخاصة شكلاً آخر من الحضور والنشاط؛ بما خلق شريحة تفاخر بما بلغته الصين وما تسير نحوه، وإن تواصلت هيمنة الدولة على قطاعات الاقتصاد الإستراتيجية. لكن في توضيح طبيعة علاقة الدولة بالمبادرة الخاصة النشيطة، يقول الكاتب: ينبغي أن نقول إن العلاقة بين نظام السوق والدولة ضمن الواقع الصيني الحالي تبقى غير واضحة. ثمة سير في هذا الطريق، ولكن ليس بالشكل الرأسمالي الأمريكي، فقد سمحت الدولة بخوض هذا الطريق، ولكن وفق ضوابط صينية.

ثمة من يقول مع شي جين بينج انتهت مرحلة الإصلاحات الاقتصادية الجوهرية ليشهد البلد عودة للأيديولوجيا الماوية. لكن في خضم ذلك الاستشراف لمستقبل الصين، يعيش البلد اليوم ما يُسمى «حكم القانون»، وليس ما يُعرف في الغرب بـ«النظام الديمقراطي». كما أن هناك سعيًا مع شي جين بينج لترويج صورة للصين ليس كقوة اقتصادية، بل كقوة تعاون وبناء مشترك، وهو ما يغري بالفعل عديد الدول.

وبوجه عام، يثمن الكتاب عديد المظاهر التي تعيشها الصين وينتقد أخرى. فقد بات الحضور الاقتصادي القوي يُخشى أثره العالمي بالسلب وبالإيجاب، أي في حالة تزايد النمو وفي حال تراجع، وأن حالة الانكماش التي قد تحدث، مظاهرها السلبية أكثر ضرراً على الاقتصاد العالمي. ليختتم مؤلف الكتاب حديثه بما يشبه النبوءة قائلاً: التنافس بين الصين والنموذج الغربي مرشح لأن يبقى على مستوى اقتصادي، وألاً يمتد إلى قطاعات أخرى؛ ولكن أوروبا المرتابة والمأزومة ينبغي أن تجد الشكل المناسب لخوض التعاون مع الصين، وإن لم يحدث ذلك فإن الزحف الصيني قادم لا محالة.

الكتاب: «وَرثة ماو... الاقتصاد والمجتمع والسياسة في عهد الرئيس شي جين بينج».

– تأليف: إيغناسيو موزو.

– الناشر: منشورات دونزيللي، روما، باللغة الإيطالية، ٢٠١٨.

عدد الصفحات: ١٩٨ صفحة.

* أستاذ تونسي بجامعة روما



مستوى كسب الحقوق الاجتماعية أيضاً. نحن أمام بلد يشهد نمواً مطرداً على مستوى اقتصادي، بدأ يصحبه بالمثل تطور على مستوى اجتماعي.

يُشير مؤلف الكتاب إلى أن إستراتيجية العلاقات الصينية على مستوى اقتصادي واسعة ومتداخلة، من بناء مجموعة الستة عشر زائد واحد التي تضم بلدان وسط أوروبا وشرقها، إلى تمتين العلاقات مع الدول الإفريقية. لكن خيطاً ناسجاً يربط بين جميعها، أن الصين رغم قوتها ورغم الضغوطات الهائلة المسلطة عليها، فهي على مستوى أول قوة لا تذهب للحرب وتتفادها، وعلى مستوى ثانٍ لا تسعى إلى فرض نموذج أيديولوجي معين في الخارج، مهما بلغ نجاح ذلك النموذج في الداخل، وإنما تسعى دائماً لعرض توغّلها في العالم عبر التعاون والبناء المشترك؛ لذلك تعلن الصين باستمرار احترامها ومرعاتها أنماط الحكم السائدة في الخارج.

يُولي الكتاب الشخصية السياسية الأولى في الصين –شخصية شي جين بينج– اهتماماً خاصاً، فمنذ العام ٢٠١٢ يمكسك الرجل بمقاليه القيادة. يقول إيغناسيو موزو: يمكن القول وبكل تأكيد إن البلد لم يعرف زعيماً مؤثراً بعد ماو يضاها تأثير شي جين بينج، فمنذ العام ٢٠١٧ دخل جين بينج في عهده رئاسية ثانية وشهد القانون تنقيحات دستورية يمكن أن تسمح له بعهدته الثالثة أي بما يتجاوز ٢٠٢٢. وفي مستهل عهده الثانية، يجد شي جين بينج نفسه أمام تحدٍّ كبير، في الوقت الذي يتواصل فيه صعود الصين ويزداد ترسُّخ التحديث، وإن كان يواجه البلد اختلالاً لا يزال حاضراً في المجال الاجتماعي. في واقع الأمر شي جين بينج شخصية إشكالية، يسود في الغرب انتقاد لسياساته بموجب الطابع السلطوي لمساره المشوب بالطابع «الإمبراطوري»، وهو ما يذكر

التواجه خلال تلك الرحلة مع مصاعب جمة، في بلد يُعد سكانه خمس البشرية، وبحوزته سبعة بالمئة من الأراضي الصالحة للزراعة على مستوى العالم، وبمواد أولية ومصادر للطاقة محدودة، مع ذلك يشق البلد مسارا نحو التطور بخطى ثابتة.

لا يغفل الكاتب عن الإشارة إلى أمر مهم في خضم هذا التحليل، وهو أن التطور المتسارع على مستوى اقتصادي لا يسير بموازاة تحول سياسي ولا يصحبه انفتاح ديمقراطي، بل يشهد البلد ثباتاً في ذلك الجانب، حيث لا يزال الحزب الشيوعي يمسك بزمام التسيير والتوجيه لجل القطاعات الحيوية. إذ لطالما ذهب المحللون الاقتصاديون –لا سيما الغربيين منهم– إلى أن التطور التنموي والانخراط في دورة الاقتصاد العالمي سيدفعان أجلاً أم عاجلاً نحو تحول ليبرالي ديمقراطي على غرار النمط الغربي. أمّلت ذلك التصور قناعة بأن اقتصاد السوق في أعلى مستوياته لا يتلاءم مع نظام سياسي مركزي، وهو الشكل السائد في الصين. فالبلد لا يزال رهين حزب مهيمن، ونجد فيه ثمانين مليون منخرط في الحزب الشيوعي. كما تبقى الحكومة والجيش والاقتصاد والإعلام وإدارة تسيير المحافظات واقعة تحت رقابة المؤسسة الحزبية.

لقد أذهل نسق التطور وحجمه، في كافة القطاعات، ليس الدول الغربية فحسب بل الدول الحليفة أيضاً. ومن خلال إرساء الصين «مشروع ٢٠٢٥» بقصد بلوغ مستويات من التقنية المتطورة تضاهي المستويات الغربية وتنافسها، وما تخوضه من عمليات حثيثة في البحث العلمي لأجل بلوغ الريادة في الأجهزة الحاسوبية الراقية، وفي الذكاء الاصطناعي والبيوتكنولوجيا، وفي نظم الاتصالات المتقدمة، جلبت تلك الخطى العملاقة انتباه الغرب وعدائه في الآن نفسه، وتحديدًا الولايات المتحدة الأمريكية، وهو ما ظهرت مؤشرات في خطابات الرئيس ترامب وتغريداته المعنية بالصين. إذ عادة ما تنتقد التوجهات الغربية الرأسمالية الصين، متعللة بغياب الديمقراطية وتردي حقوق الإنسان، فضلاً عن تهويل الانحطاط الداخلي على مستوى اجتماعي، في مسعى للتهوين من جاذبية النهضة الصينية. وهو ما لا يفصح عن صورة واقعية وموضوعية للتحويلات التي يشهدها البلد. يقول رئيس الوزراء الإيطالي الأسبق رومانو برودي وأستاذ الاقتصاد: كتبت مقالاً في مطلع التسعينيات بعنوان «الواحدة بأربعين»؛ شرحت فيه أن أجر ساعة العمل وتكاليفها في إيطاليا أعلى أربعين مرة مما عليه ساعة العمل في الصين. الآن، لو أعدت صياغة ذلك المقال لعنوانته بـ«الواحدة بثلاثة»، وهو ما يكشف عن حجم التحول الحاصل داخل النسيج الاجتماعي الصيني، وبما يفصح عن مسار حثيث يعيشه البلد على



الرغبة المُطلقة في النمو دانيال كوهين

محمد السالمي *

بعد عقد من الأزمة المالية في عام ٢٠٠٨، والركود الكبير الذي أعقب ذلك، يجري التشكيك في النمو الاقتصادي كمبدأ وهدف في النظريات الاقتصادية من زوايا عديدة. ففي الولايات المتحدة، لم يشهد ثمانون في المئة من السكان أي زيادة في القوة الشرائية على مدى الثلاثين سنة الماضية، ولم يكن الوضع أفضل بكثير في أي مكان آخر.

المعيشة والسعادة، والذي يهدف إلى حل مفارقة إيسترلين. على الرغم من أن الأقسام المذكورة أعلاه منفصلة عن بعضها البعض ونادراً ما ترتبط ببعضها البعض، إلا أن الكتاب يهدف إلى إثارة التفكير في نتيجة محتملة للنظريات الاقتصادية، بدلاً من اقتراح نموذج جديد ومتناسك تماماً.

في الجزء الأول من كتابه، يدرس كوهين أصل النمو بطريقة مبتكرة ولكن متضاربة نوعاً ما، حيث يربط أصل النمو مع بداية الزراعة في أماكن جغرافية متباعدة للغاية والتي حفزت على إعادة هيكلة المجتمعات والذي ارتبط بتوسع السكان. أدى التحول من الزراعة التي تدعمها الأمطار إلى الري بمياه النهر في تغيير طبيعة وموقع المجتمعات. فسيطرة القادة على فوائض الزراعة، كان لها الأثر في بدأ التخصص في النشاط والعمل في التطور. هذا التطور الاجتماعي يؤدي إلى التغيير الاقتصادي. كما أن انخفاض عدد العمال الزراعيين، يغيّر ميزان القوى بين ملاك الأراضي والعمال.

ونتيجة لذلك، حدثت لحظة فاصلة في مطلع القرن السابع عشر تزامناً مع ظهور التقنيات التحويلية مثل محرك البخار والآلات الجديدة لغزل القطن التي أدت إلى الثورة الصناعية. الغرب ازدهر، وقد ساعدت تجارة الإمبراطورية وتطوير الأسواق في أوروبا على قيادة النمو الاقتصادي العالمي. ومن هنا بدأت الثورة في استبدال الدين بفكرة التقدم المادي، وبعبارة أخرى كتب كوهين أن هذا أدى إلى حركة «من الأمل الإلهي إلى فكرة

على ما لم نحصل عليه هاجساً، تستكشف الرغبة المُطلقة في النمو الطرق التي قد نعيد اختراعها، في القرن الحادي والعشرين، إلى المثل القديم للتقدم الاجتماعي.

دانيال كوهين هو مدير قسم الاقتصاد في المدرسة العليا في باريس وعضو مؤسس في كلية باريس للاقتصاد، كما شغل كوهين سابقاً مستشاراً للبنك الدولي وتحديدًا في (مبادرة البلدان الفقيرة المثقلة بالديون)، كما عمل أيضاً مستشاراً لبنك لازارد في إعادة التفاوض حول ديون اليونان والإكوادور.

تم صياغة الكتاب حول ثلاثة مفاهيم رئيسية: النمو باعتباره رغبة إنسانية متأصلة، والنمو كهدف في النظريات الاقتصادية منذ الحرب العالمية الثانية، بالإضافة إلى صياغة نموذج مستقبلي للنمو، ومن هنا، فإن كوهين يقسم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء. في الجزء الأول، يناقش الكاتب أصول النمو الاقتصادي منذ ظهور الحضارة في الهلال الخصيب أي المنطقة المحيطة بنهري الفرات ودجلة، ونهر النيل، وكذلك ناقش الكاتب الثورة العلمية والتغيرات الديموغرافية السريعة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ثانياً، يضع الكاتب مفارقة «الثورة العلمية الثانية» الموعودة من تطور أجهزة الكمبيوتر والنمو الراكد في الغرب في العقود الثلاثة الأخيرة جنباً إلى جنب مع النمو الاقتصادي والسكاني السريع «للعالم الثالث» منذ عام ١٩٤٥. أما في الجزء الثالث، يضع الكتاب نموذجاً واسعاً وغير محدد للنمو المستقبلي على أساس مستوى

إن الرغبة المُطلقة في النمو تسلط الضوء على هاجس الرغبة في المزيد من الثروة، والتوترات العالمية التي نشأت نتيجة لذلك، وفي خضم الموارد المحدودة، وزيادة عدد السكان، وتدهور البيئة، والاضطرابات السياسية، تطرح الآن أسئلة عميقة حول طبيعة النمو حيث لم يكن هناك بحث عن أهداف اجتماعية وفردية جديدة في غاية الأهمية، في المقابل، تستطيع الاقتصادات الاستمرارية في النمو، ومن هنا أصبحت وظيفة شمولية النمو موضع جدل كبير. وبدلاً من اعتماد نمو الناتج المحلي الإجمالي كقاعدة لقياس الرفاه الاجتماعي، صاغ بعض الاقتصاديين، بما فيهم دانييل كوهين، أهدافاً مختلفة. يقدم الخبير الاقتصادي البارز دانيال كوهين في كتابه «الرغبة المُطلقة في النمو» جولة في تاريخ النمو الاقتصادي، من الأيام الأولى للحضارة إلى العصر الحديث. يقوم الاقتصاد الرقمي الجديد بإنشاء نموذج إنتاج «منخفض التكلفة»، حيث يستطيع هذا النموذج أن يتولى المهام الأساسية بتكلفة منخفضة، ويتمثل ذلك في الروبوتات، كما أن استغلال العالم الطبيعي بدأ يأتي بنتائج عكسية. العمل الشاق لم يعد يضمن الاندماج الاجتماعي أو الدخل، بالاعتماد على الاقتصاد والأنثروبولوجيا وعلم النفس، يدرس كوهين كيف يُمكن النظر في مستقبل أقل اعتماداً على الكسب المادي، وكيف يمكن، في ثقافة المنافسة والتي نحن نعاصرها، أن تكون الرغبات الفردية أفضل تجاه احتياجات أكبر للمجتمع. ومن هنا، وفي الوقت الذي أصبحت فيه الرغبة في الحصول



وممتع في رحلاتنا عبر الحياة» في هذه الصفحات المهمة على طول هذه الخطوط، هذا هو جوهر نصيحته. على الرغم من هذه الانتقادات، هناك بعض الحقائق المهمة في حجج كوهين. يبدو أن معظم الأميركيين والفرنسيين وكل الأشخاص الآخرين تقريباً في العالم لديهم رغبة لا تقهر للنمو الاقتصادي. والرغبات اللانهائية للأشياء المادية هي بالتأكيد سيئة. ليس لأنها ستدمر كوكب الأرض، فقد تبدو الجودة البيئية جيدة بشكل طبيعي؛ لذلك نحن «نشترى» التحسينات البيئية كلما أصبحنا أكثر ثراءً. كما أنه ليس لأننا لن نكون قادرين على تحقيق نمو اقتصادي قوي للأجيال القادمة حيث إن تحفيز المليارات من الناس على الخروج بأفكار مثمرة ربما يحقق هذا أيضاً. قد يكون كوهين على حق في أننا بحاجة إلى إطار جديد، ولكن يجب أن يكون إطاراً للتعامل مع الوفرة، وهو إطار عقلي في الأساس.

تم تأطير كتاب «الرغبة المطلقة في النمو» ككتاب يتناول القضايا الملحة للاقتصاد والعالم الحالي بسبب اقتصاد رقمي ناشئ، مدفوعاً بالثورة العلمية الثانية». لسوء الحظ، فإن عمل كوهين أقل بكثير من هذا الوعد، أهدافه الطموحة للغاية تجعله يتغاضى عن السياقات الزمنية والمكانية والتاريخية التي ظهرت فيها فكرة النمو، على الرغم من النقد والحماس الذي أثاره الكتاب، صنف الكتاب في قائمتي الفايينشال تايمز وبلومبيرج بكونه أفضل الكتب الاقتصادية، وما يؤكد كوهين أن الاعتماد على الناتج المحلي الإجمالي كمعيار لقياس مدى الرفاه والتطور الاجتماعي قد يفضي لحقيقة منقوصة يؤكدتها الكثير من الاقتصاديين.

تفاصيل الكتاب:

اسم الكتاب: الرغبة المطلقة في النمو

المؤلف: Daniel Cohen

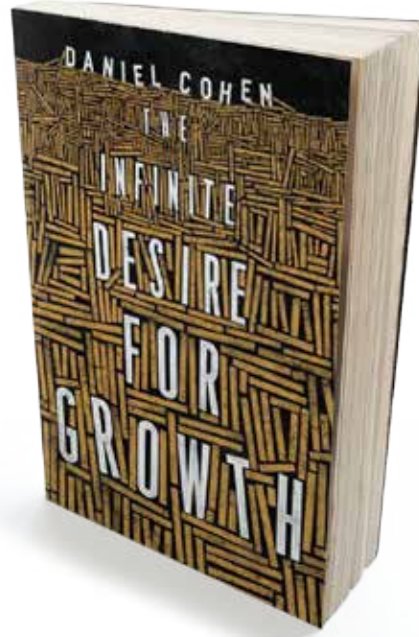
الناشر: Princeton University press

سنة النشر: 2018

اللغة: الإنجليزية

عدد الصفحات: 184

* كاتب عماني



منذ بداية الثورة الرقمية. وفي نفس السياق أدى التطور في تكنولوجيا المعلومات والاتصال إلى إعادة تنظيم العمل عبر تعدد المهام والاستعانة بمصادر خارجية ولكن لم يكن له أي تأثير حقيقي على النمو، وقد ساهم هذا في زيادة عدم المساواة.

يجادل كوهين بأنه لا يمكن تحقيق مستوى مقبول من السعادة إلا إذا تم تحويل المجتمعات التي تضررت من النمو الاقتصادي الضعيف؛ حيث يرى ضرورة أن يكون هذا التحول عميقاً لأنه يتطلب مواقف جديدة تجاه التقدم المادي والعمل والتسلسل الهرمي، وعلاوة على ذلك، تستند الحجج الرئيسية على بيانات من تقرير السعادة العالمي للأمم المتحدة، الذي يحتوي الاعتماد على قياس نسبي للسعادة لاستخلاص استنتاجات حول المستويات المطلقة للرفاه، قد يسجل الفرنسيون درجة منخفضة من السعادة، لكن من الصعب إقناعنا بأن رفاههم هو نفس شعور الناس في معظم بلدان أفريقيا أو أمريكا الوسطى والكاريبية حتى لو كانت درجات السعادة المتوسطة هي نفسها أو ما شابهها. يخلص كوهين إلى أننا بحاجة إلى إطار جديد لخفض هذه العقدة، ومع ذلك، فهو لا يحاول جاهداً بناء واحدة، بل إنه ينتقد المجتمع الأمريكي والفرنسي ويطلب منا اعتبار الدنمارك نموذجاً يحتذى به. «في الدنمارك يثق الناس ببعضهم البعض ومؤسساتهم، نحن بحاجة إلى استعادة التضامن، وإعادة إحياء العالم، واتخاذ مسار طويل، بطيء

التقدم؛ حيث أصبح النمو المادي مرادفاً للتقدم للدول والأفراد. إن هذا الانصهار، كما يؤكد المؤلف، أدى إلى التحدي الاقتصادي في عصرنا، حيث غيرت التكنولوجيا الرقمية طبيعة النمو. الجزء الأكثر ابتكاراً وتحفيزاً للفكر في الكتاب وتحت عنوان «المستقبل، المستقبل»، يقدم حجة متماسكة لنمو ضعيف في المستقبل. بدءاً من لحظة عامة عن التقدم التكنولوجي القادم، والذي يقود إلى إمكانية نمو دائم، ومع ذلك، هناك سحابة معلقة على هذه الجنة، ألا وهي القضاء المحتمل على وظائف الطبقة المتوسطة، يجادل كوهين بأن النمو الراكد منذ السبعينات قد دمر العقد الاجتماعي القائم بين العمال والرأسماليين خلال عصر التنوير. وهكذا، فإن الحل الوحيد هو إعادة بناء «العقد الاجتماعي الحقيقي» وإنشاء نظام اقتصادي ينمو ويدافع عن مستويات المعيشة ورضا العمال والسعادة، وليس الناتج المحلي الإجمالي والثروة. ولكن رغم اتفاق كوهين مع المنطق النظري وتجاهله للحقيقة، إلا أن الإحصائيات تشير إلى العلاقة الطردية بين التكنولوجيا والبطالة. مع مرور الزمن يكون الأفراد أكثر تخصصاً ومواكبة للتغير في القطاعات الاقتصادية.

ورغم أن القسم الثالث يتزامن مع المناقشات الحالية، إلا أن هذا الجزء لا يزال يعاني من العديد من الهفوات التي تنبع من بداية ضعيفة في محاولة غير مقنعة للتعامل مع تداعيات النمو الاقتصادي الضعيف على الرفاهية. إن القضية الأكثر أهمية في الرغبة اللانهائية هي عدم وجود خصوصية عند عبور قرون من الزمان والمكان دون وضع سياق ملائم ليس فقط للتكوين الفكري ونشر الأفكار، ولكن أيضاً للتغيرات السياسية والاقتصادية والدولية في العالم منذ القرن السابع عشر. بدون هذا السياق، يمكن بسهولة أن ينظر إلى النمو الاقتصادي على أنه ظاهرة قديمة أكثر من كونه اختراعاً جديداً يدعمه إنشاء الإحصاءات كمجال علمي في القرن العشرين.

وقد أشار الكاتب إلى أننا في خضم ثورة صناعية جديدة مدفوعة بتكنولوجيا الكمبيوتر والذكاء الاصطناعي التي لم تترجم إلى نمو اقتصادي. ولاحظ أن الإنتاجية قد انخفضت أو توقفت



التلاعب بالوعي.. لسيرغي كارا مورزا

فيكتوريا زاريتوفسكايا*

لطالما كانت خاصية الطبيعة البشرية وتناقضاتها محطَّ اهتمام العلماء والفلاسفة عبر التاريخ؛ فها هو فيلسوف المثالية أفلاطون يقفُّ أمام هذه الخاصية وقفة المتسائل الحيران: لماذا يهفو الإنسان إلى المسرح وظلاله الخيالية، مُفضِّلاً إياه عن الحقيقة وضوئها الساطع؟. يقول مؤلف كتاب «التلاعب بالوعي» مستنبطاً كلامه من فيلسوف اليونان: «في الكهف الذي لا يتسلل إليه النور يجلس البشر وهم مقيدون بالأصفاد؛ لقد ظلوا زمناً طويلاً وهم يرفسون في أغلالهم. خلفهم ثمة نار تشتعل، وأمامهم حائط حجري، وفي مكان ما يختبئ مشعوذون ويقومون - كما هي الحال في مسرح الدمى - بتحريك أبطال من خشب تحاكي الناس والحيوانات والجماد. يتمُّ تحريك العرائس وترتفع أصداً الأصوات والكلمات في جوف الكهف. أما الناس المقيدون، فمن العسير عليهم أن يلتفتوا إلى الورا لروية النار (أي الحقيقة)، ولا يَسْمَح لهم وضعهم سوى النظر أمامهم والتحديد في الظلال المنعكسة على جدران الكهف. لقد ضلوا عن العالم الخارجي وما يجري تحت شمسهم وهم على يقين من أن الظلال التي تتموه على الجدران، والصدى الذي يتردد في الهواء، إنما هي العالم الحقيقي الممثل للأشخاص والأشياء، وعلى هذه الحال إنما يعيشون» (ص: ٢٨٧).

لقد كان الهجوم الأكثر فاعلية للتلاعب بالوعي في روسيا - كما يذكر المؤلف - هو تلك الحملة التي تم تنظيمها عقب انهيار الاتحاد السوفيتي. وهكذا، ففي غضون عامين فقط (١٩٨٩-١٩٩١) تمكن مؤيدو سياسة إصلاح السوق من إقناع العمال بأن الخصخصة والبطالة الحتمية تتوافق مع مصالحهم. ويعد هذا إنجازاً بارزاً في التلاعب بالوعي بواسطة التكنولوجيا، حيث لم يتلق العمال في هذين العامين أي نتيجة إيجابية تقنعهم بمزايا الخصخصة والبطالة، ومع ذلك سلموا لما لها بدون مقاومة تذكر.

ويلفت الباحث الانتباه إلى حقيقة أن في المجتمعات التقليدية، مثل المجتمع الروسي، ثمة نقاط ضعف تختلف عن الثقافات الغربية. يقول في هذا الصدد: «في الغرب، يُعد انخفاض الإنتاج بنسبة واحد في المئة أزمة حقيقية تندر بتغير جذري في سلوك الأفراد، حتى وإن لم يتأثر الفرد بالأزمة تأثيراً مباشراً، إلا أن الخوف يبقى مخيماً ومائلاً حتى زوال الخطر. أما في المجتمعات التقليدية، فإن الهشاشة تكون السمة الغالبة عند مواجهة التقلبات، ويكون من الصعب عليه إنتاج خطوط دفاع علمية وسليمة. ويكفي الشك في الحياة والسلطة لينقلب النظام السياسي رأساً على عقب (ص: ٣٥). ويذكر المؤلف مجموعة من الحالات في التاريخ الروسي تؤيد وجهة نظره ومنها ما أدى لانقلابات درامية

تكنولوجيا رفيعة ودقيقة لدرجة أن شعوب العالم بثقافته التقليدية، كالمجتمع الروسي على سبيل المثال، مازالت غير قادرة على اكتشاف جوهرها وتقنياتها وأهدافها. والأهم من ذلك أن المجتمع في الثقافات غير الغربية يعتقد أن التلاعب بالوعي ما هو إلا خداع مهين، وسيلته الإغراء، وغاياته السرقة، وليس أكثر من ذلك.

يقول الكاتب: «من المؤسف رؤية معظم الناس وهم غير مدركين أن خلف غطاء التلاعب بالوعي يكمن سلاح فتاك يتم من خلاله قيادة مجتمعات بأكملها، وتوجيهها الوجهة التي تضر بمصالحها، قلباً وقالباً» (ص: ٤٠٣).

لا يقتصر سيرجي كارا مورزا - في كتابه - على تقصي البنية الكلية لآلية التلاعب بالوعي؛ باعتبارها تقنية للهيمنة وحسب، بل يطرح أمثلة حية من المجتمعات المعاصرة، وهي في حالة مواجهة مع هذه الآلية. وبالنسبة لروسيا، يلاحظ الباحث أن الرُضوخ للتلاعب بالوعي سيؤدي بالبلاد إلى طريق واحد لا ثاني له، ألا وهو طريق التغيير الجذري للثقافة القومية وطريقة التفكير الذي سيؤدي لا محالة إلى الإخلال بالبلغة نفسها. ويرى الكاتب أن تبني نوع جديد من السلطة على المجتمع، أو العكس، أي حماية البنية المجتمعية من التلاعب بوعياها، هو مسألة مصيرية وتاريخية قد تهدد وجود أي شعب من الشعوب.

وبحسب رأي المنظر الروسي للعلوم والباحث السياسي سيرغي كارا مورزا، الذي تضمنه كتابه الجديد «التلاعب بالوعي»، فإن مثال أفلاطون لم يتجسد على مر الأزمنة وعبر الأمكنة بدقة متناهية مثلما يتجسد في يوم الناس هذا. فبرأيه لم يحدث من قبل أن سيطر جهازٌ على عقول الناس وحبس وجدانهم فيه مثلما يفعل التلفاز (أو ما شابهه) في الإنسان المعاصر؛ هذا الإنسان المستعد أن يهدر وقتاً هائلاً من غير أن تفارق عيناه هذا الصندوق (أو الكهف) الكهربائي. يقول المؤلف في هذا السياق: «يُهيئ التلفاز مثل هذا الطغس المسرحي لأفراد المجتمع؛ إنه يمتلك ظلالاً جيدة الصنع، فيبدو معها العالم الحقيقي باهتاً وشاحباً وأقل عافية بكثير من الصور التي تعرضها الشاشة. كما أن الفرد المقيد أمام التلفاز منذ نعومة أظفاره لا يرغب في الخروج إلى العالم الحقيقي، ويضع ثقته الكاملة في المشعوذين الذين يتلاعبون بحبال الدمى (أو الأزرار) (ص: ٢٨٧). إن كتاب «التلاعب بالوعي» بحثٌ في التكنولوجيا المعقدة التي تلجأ إليها حكومات العصر الجديد (والحكومات الغربية خاصة)؛ من أجل السيطرة والهيمنة على مقدرات العالم، وهو بحثٌ يجمع بين الأسلوب العلمي لفهم العالم، وأسس علم الإنثروبولوجيا والفلسفة وعلم الأخلاق، وعقلانية السياسة والقانون. أما عن التكنولوجيا المشار إليها؛ فهي - بحسب الكاتب -



تطور البشرية (...). ويؤمن الكثيرون أن العنف الجسدي أقل تدميراً للفرد من وقوعه في قبضة التكنولوجيا التي تتلاعب بوعيه».

يُحاول الباحث أن يُثبت من خلال الأمثلة والأرقام الواقع السرابي للسوق الحرة التي تروج لها وسائل الإعلام، هذه السوق التي ليست حرة في الحقيقة كما يشاع عنها وفيها الكثير من القيود المعلنة والخفية. يقول الكاتب ضارباً مثالا عن الحياة الثقافية إبان الاتحاد السوفيتي: «مع حقيقة رخص الأسعار في الاتحاد السوفيتي، كانت هناك قيود مفروضة على الاشتراكات في الصحف والمجلات. وفي بعض الأحيان كان يتحتم على المرء القيام بإجراءات كثيرة للاشتراك في بعض المنشورات الشعبية.

بالنسبة لبعض المثقفين، كان هذا رمزاً للقمع الاستبدادي وللسلطة الدكتاتورية التي لا تحاصر المعرفة وتقيد الحريات. مع أن الأرقام تقول إن المشتركين في «الجريدة الأدبية» زمن الاتحاد السوفيتي تجاوز عددهم خمسة ملايين مشترك، وقس على ذلك الكثير من المنشورات والمجلات الأدبية والعلمية والاجتماعية. وبالمقارنة مع هذا العدد في الزمن السوفيتي بالعدد في الزمن اللاحق له؛ حيث انفلتت القيود، نجد أن النسبة انخفضت بشكل كبير وتراجعت القراءة كوسيلة للمعرفة لصالح الوسائل التكنولوجية الأخرى (ص: 136-137). وفي الختام، يتضح لنا أن الهدف الرئيسي للكاتب هو إبراز المادة العلمية والتطبيقية لموضوع البحث، أي مسألة التلاعب بالوعي، ووضعها بين يدي القارئ؛ بحيث يمكن لأي شخص أن يفكر في الخيار الذي يناسبه، ففي نهاية المطاف، حتى وإن كان التيار جارفاً، تبقى المسألة مسألة اختيار فردي، وتدخل ضمن أسلوب الحياة الذي يتخذه الأفراد وكيفية ترتيب معيشتهم اليومي.

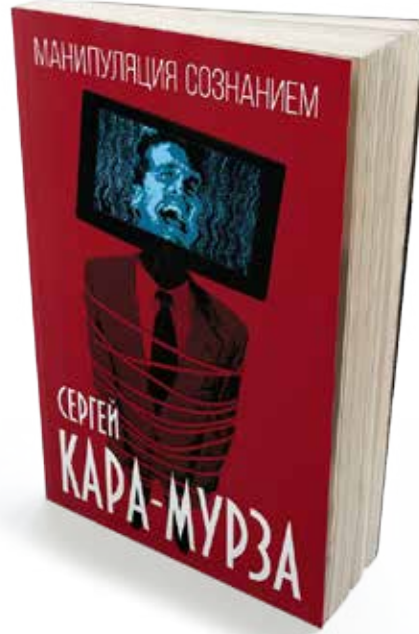
- الكتاب: «التلاعب بالوعي».

- المؤلف: سيرغي كارا مورزا.

- الناشر: رودينا، موسكو، 2018، باللغة الروسية.

- عدد الصفحات: 432 صفحة.

* أكاديمية ومستعربة روسية



في البلاد، دفع الناس لاختيار منافسه الليبرالي؛ وذلك رغم عدم وجود صلة واضحة بين القمع الستاليني والحزب الشيوعي للاتحاد الروسي.

ويخصّص الكاتب فصلاً مستقلاً من كتابه لتحليل نوع من التفكير يتمخض عن مشاهدة التلفاز، مشيراً إليه باعتباره «مرض التوحد الجماعي» الذي ينتج بسبب التلاعب بالوعي. فإذا كان هدف التفكير الواقعي هو خلق الأفكار الصحيحة والصحية عن الواقع، فإن هدف تفكير التوحد الجماعي هو خلق أفكار ممتعة وحجب الأفكار غير السارة؛ وذلك لمنع الوصول إلى أي قنوات أو معلومات تحض على مساءلة الواقع.

ويعرض المؤلف مسألة التلاعب بالوعي بمستواها الأخلاقي، ويذهب إلى معرفة حالة الفرد في لحظة انتقاله من وضعية الإكراه المباشر إلى وضعية التلاعب في وعيه. ففي المجتمعات المدنية التي تعمل على قواعد التنافس بما يشبه حرباً يكون الكل فيها ضد الكل، وتنقسم فئات المنخرطين في هذه الحرب إلى ثلاث فئات: صديق، وشريك، ومنافس. أما الفرد الذي يكون هدفاً للتلاعب بالوعي فيقع خارج هذا التصنيف. إنه ليس صديقاً وليس شريكاً وليس منافساً، وإنما هو شيء وحسب. يقول كارا مرزا: «بغض النظر عن الأيديولوجية والانتماء السياسي للفرد، فإن التلاعب بوعيه من قبل حكام مستبشرين ليس فقط مسموحاً به، لكنه يؤدي كذلك إلى نتيجة حميدة ويفتح الأبواب إلى التقدم. ويعتقد العديد من الفلاسفة أن الانتقال من الإكراه واستخدام العنف في التحكم بالمجتمع إلى آلية التلاعب بالوعي إنما هو خطوة جبارة في

في السطلة الروسية. ويشبه المؤلف المجتمعات التقليدية التي تعيش في العالم المعاصر بمستعمرة من البكتيريا والفطريات، تبدو للعيان متكاملة، ولكن بمجرد إطلاق فيروس إلى داخلها تعلن الثغرات عن نفسها وتنتضح هشاشة المجتمع، وذلك بعكس المجتمعات المدنية في الدول المتقدمة؛ حيث الفردانية أمر لا شك فيه، وحيث يرتبط أفراد المجتمع بخيوط شفافه تجمعهم بالسلطة، وحيث تطفو الأزمات على السطح بمجرد حدوثها.

ويحدّد المؤلف بعض الخصائص الثقافية للشعب الروسي مكنته من مقاومة التلاعب بالوعي الجماعي. كما يشير إلى مدى إعجاب الخبراء الغربيين بقدرته المجتمع الروسي على المقاومة رغم الضربات التي تلقاها في الحرب الباردة. يُشير الكاتب إلى ذلك: «لم يدمر الإفكار الجماعي المجتمع ولم يسممه، بل كاد أن لا يكون مصدر إزعاج للناس. وخلافاً للتوقعات، فإن المجتمع لم يتفكك، وظل باقياً وفقاً لقوانين غير مكتوبة ومعايير ثقافية خاصة» (ص: 35).

فالفرد الروسي الذي لم يفقد ذاكرته التاريخية، على الرغم من الحروب والكوارث الرهيبة، لا يعاني من خوف باطني من الموت. ومع أن مسألة الموت والخلص تحتلان مكاناً بارزاً في أفكار ومشاعر الشخصية الأرثوذكسية، إلا أن فلسفة الموت كانت ولا تزال مطرزة بالشعور الغنائي والحب للأرض. وإذا ما نحن أبحرنا في الأمثال والموروث الشعبي الروسي، سنصادف الكثير من المقولات التي تصور الموت كمعادل وليس كماحق للحياة. من بين تلك الأمثال نذكر: «لا تخف الموت إذا كنت تريد الحياة»، «الموت يأتي مرة واحدة لا أكثر، فلم الخوف منه». حتى وقت قريب، لم يكن الخوف الوجودي يلعب دوراً مهماً في ثقافة روسيا، فقد ركزت الأرثوذكسية والثقافة التي نشأت في تربتها على مسألة الحب؛ مما أعطى مجالاً للفكك من الخوف الوجودي والتهيب العصابي والتدميري من الموت. ومع ذلك كله، فإن شريحة من المواطنين المشبعين بالفكر العقلاني، وبعد أن أصابهم الخوف العصابي، استطاعوا أن يقلبوا المعادلة في البلاد بأسرها، ويدخلوها إلى زمن جديد. وهكذا، فقد صوّت جزء من المثقفين في العام 1996 لصالح بوريس يلتسين، أول رئيس ليبرالي في روسيا. وقد توصل علماء الاجتماع الذين درسوا دوافع هذا الاختيار إلى استنتاج؛ مفاده: أن الخوف من سيطرة رئيس الحزب الشيوعي زيوغانوف على مقاليد الحكم



غواصة الإسكندر: الإنسان والبحر في العصور الوسطى - جماعة من الباحثين

سعید بوكرامي *

يعتبر المجال البحري في العصور الوسطى عالماً غامضاً محفوفاً بالخيال، والأساطير، مضطرباً بالأحداث المروعة والمجهولة، التي لا يعرف عنها القارئ المعاصر إلا القليل. كما يشكل أيضاً مجالاً مركزياً في الجغرافيا والاقتصاد في ذلك الوقت. بداية من رحلات الفايكينغ إلى الاستكشافات البرتغالية، وصولاً إلى مغامرات القراصنة ورحلات الحجاج إلى الأراضي المقدسة، ومن ازدهار الموانئ الإيطالية أو الهانزية « الألمانية » إلى تجفيف المستنقعات الهولندية، في هذه الفترة وبهذه المعطيات المتغيرة ظهر عالم جديد، بدأ فيه الإنسان يتعلم تدريجياً التعامل مع المحيطات والتعرف عليها عن قرب، مما سهل عليه استكشافها، واستغلالها، لكن سرعان ما تحول الفضول إلى رغبة في الهيمنة، فتحوّلت إلى مجال للصراعات التجارية والحربية.

كان موضوعاً للخوف، في إشارة إلى الطوفان، أو وسيلة للإيقاظ مع مثال اختراق البحر الأحمر خلال النزوح في الكتاب المقدس، وما يثيره البحر من ردود الفعل، أو ما يستدعيه من الفضول، كما يتضح من غلاف الكتاب الذي يقدم صورة الإسكندر الذي طلب تشييد غواصة لسبر أعماق البحر في القرن الثاني عشر. بالإضافة إلى تنوع وتعقيد العواطف المتعلقة بالعالم البحري، يُظهر المؤلفون كيف ينظر الناس في العصور الوسطى إلى البحر ويتخيلون كائناته المتنوعة، من وحوش بحرية، وحوريات بحرية، وحياتان غريبة، ولكن أيضاً الكائنات الأقل إثارة للإعجاب، فإنه من الصعب إحصاء الأنواع كلها، مما يجعل أعماق البحر فضاءً محفوفاً بالغموض والأساطير، ويبدو في الآن نفسه عالماً بعيداً ومجهولاً عن الناس الذين يعيشون على ضفافه، ومألوفاً أيضاً بما يستطيعون جلبه من خيرات بحرية.

كان زال البحر موضوع تفكير للإنسان، بحيث يتساءل المؤلفون عن خاصية ملوحته وسحره المتجسد في جزره وأرخبيلاته ذات الجغرافية الساحرة والخرافية وخصوصاً الجزر البعيدة مثل أفالون بـ «فضائها السحري وتمثلاتها الخرافية» (ص. ٤٥). باختصار، كان يُنظر إلى البحر في العصور الوسطى بتصورات متناقضة فهو خطير ومنقذ في الآن ذاته.

الفصل الثاني يتناول موضوع البحر من الجانب المادي. ويتعلق الأمر بعمليات الملاحة والابتكارات التقنية خلال هذه الفترة. كما يسلط المؤلفون الضوء على المساهمات اللغوية لبحارة الدول الإسكندنافية بخصوص الأسماء التي كانوا يطلقونها على سفنهم البحرية والتي تستخدم الآن في اللغة اليومية، ولكن هي من أصول شمالية. تقدم القوارب وفقاً لأصولها الجغرافية، مثل اللانغسكيب المجهزة برأس التنين

القراءة ومتمتع السفر. في منتصف الكتاب، نجد ملفاً توثيقياً من الرسوم التوضيحية الملونة ذات مرجعية دقيقة ومصحوبة بتعليقات موجزة وسريعة تسمح للقارئ بالربط بين النص والصورة. وفي خاتمة كل نص نعثر على خارطة توضيحية، ونأسف لعدم العثور على المزيد من نماذج الخرائط بعد أن ذكرت في المقدمة. من جهة أخرى، اهتم المؤلفون بإدراج الاستشهادات بانتظام، وبالتالي منح القارئ حق الوصول إلى المصادر النصية، التي عرضت في أبعاد معقولة وبشكل منهجي، بين كل سطرين وخمسة أسطر، حتى لا تثبط عزيمته غير القارئ غير المتخصص، في حين تفتح الفصول على الدراسات التاريخية والجغرافية للكتاب المعاصرين. وأخيراً فإن الفضولي والعالم سيجدان في هذا العمل بيوغرافياً لأكثر من مائة وعشرين مرجعاً لمواصلة التقصي بأربعة لغات عالمية ومنها اللغة العربية. بحيث نجد أهم الأعلام الإيستوغرافيين في العصور الوسطى في هذا المجال البحثي مثل (ستيفان لوبيك وألبان غوتبي وجان كلود هوكي وكريستوف بيكار وغيرهم) لكننا نستغرب عندما لا نجد ذكراً لبعض الكتب الكلاسيكية مثل كتاب ميشيل مولا « أوروبا والبحر » رغم ذكر بعض المهتمين به مثل فابريس غيزار الذي خصص كتاباً هاماً حول مياه البحر الأبيض المتوسط من القديم إلى العصر الوسيط. لكن هذا النقص لا يعيب الكتاب إطلاقاً، بل هو ثري بالمعلومات والمصادر العزيزة المنال.

ينقسم الكتاب إلى ستة فصول متجانسة من حيث الحجم، مسبقة بمقدمة طويلة تسلط الضوء على مدى تعقيد وثرأ الموضوع. يهتم الفصل الأول بطريقة تصور الإنسان في العصر الوسيط للبحر. من خلال لمحة عن تاريخ التمثيلات المتعلقة بالفضاء البحري. بحيث

يعد البحث الذي بين أيدينا الموسوم بـ « غواصة الإسكندر: الإنسان والبحر في العصور الوسطى » غنيمة معرفية، لأنه من البحوث الجادة والعميقة المعتمدة على أحدث الأبحاث، والمزودة بأمثلة ملموسة، ومصادر موثقة، وبذلك تمكن المؤلفون وبمهارة وسلاسة من استضافتنا في رحلة طويلة ومثيرة، على أمواج التاريخ البحري المضطرب في فترة العصور الوسطى.

يدعوننا المؤلفون إلى نقاش مختلف للخطاب التاريخي من خلال اقتراح عمل يضيء طابعاً ديمقراطياً على موضوع مازال البحث حوله نادراً حتى ذلك الحين ويتعلق الأمر بعلاقة الإنسان بالبحر خلال العصور الوسطى. يركز الكتاب أساساً على أوروبا، لكننا نجد توغلات في البلدان الإسلامية، ويأتي الكتاب نتيجة مغامرة مجموعة من الباحثين، وهي مبادرة فريدة من نوعها. اتسمت عملية الكتابة بالجدة والإبداع إذ لم يضع الباحثون أسماءهم إلا في نهاية الكتاب، مفسحين بذلك المجال للعمل البحثي الجماعي بحيث أصبحت الفصول منسجمة ومتكاملة وكأنها مؤلف واحد. كتب إذن مضان الكتاب، دون أن نعرف على وجه التحديد من تدخل في الكتابة وقام بتحرير كل جزء من الكتاب؛ لأن الأولوية كانت للعمل الجماعي الذي يهدف إلى إماطة اللثام عن جوانب مهمة من التاريخ البحري في العصور الوسطى.

ليس الكتاب بحثاً فقط بل وسيلة لنشر مناهج البحث المكتسبة، وهو نهج تطوعي من قبل المؤلفين. وهذا يبرز في ما وضعوه من الملاحظات المرفوضة في نهاية الكتاب، والتي لا تستجيب لحاجة القارئ المحتملة إلى الدقة في المعطيات، دون إزعاج القارئ غير المتخصص الذي لا يكون بالضرورة على دراية بالمعدات البحرية العلمية. لكن هذا لا يمنع القارئ من تحقيق متعتين: متعة



إلى التعديلات التدريجية في المشهد الساحلي بسبب استغلاله، ودينامية اشتغاله مما انعكس أيضا على محيطه الجغرافي.

يهتم الفصل الأخير بموضوع ملكية البحر، بحيث يعتبرها المؤلفون مسألة شائكة وقد انعكس الصراع حول الملكية في عدد كبير من المعارك البحرية العنيفة، التي وقعت هنا وهناك. كما حاولت بعض الدول فرض نظام جيائي على التجارة البحرية، لكن دون نجاح كبير، لا سيما بسبب تعقيدات الاختصاصات القضائية. وكذلك، كان من الصعب على جميع القوى السياسية وضع تشريع عام لتنظيم العلاقات في البحر، باستثناء المشاورات والاتفاقات بين بعض المدن البحرية، كما هو الحال بين هامبورغ ولوبيك في عام ١٢٥٩.

باختصار، حافظ هذا الكتاب، الذي يطمح إلى أن يكون متاحًا للجمهور العام، على وعده. ومع ذلك، لاحظنا ورود بعض المصطلحات التي لم تفسر أو توضع لها إحالات مرجعية وهذا الأمر غير مبرر كما أنه حجب بعض الشيء الوضوح المنهجي للكتاب، على الرغم من العناية الدقيقة بأسلوب الكتابة التاريخية، الواضحة والمتاحة للقراء غير المتخصصين. ويمكننا القول في الختم أن توحيد ثلاثة عشر باحثًا في خطة عمل بحثي صعب واستثنائي ضمن موضوع واحد يعد إنجازًا أكاديميًا مميّزًا. وهم على التوالي: ماري أنطوانيت ألأمينيكا، فلوريان بوسون، توبياس بيرستاد، يوان بويديس، ماكسيم فولكونيس، نيكولا غرنبي، فيفيان غريفو جينيست، بولين غوينا، كاترين كيكوشي، أن كوكب، ماري كريستين باين، ماركو روبيتشي، وليزا سانشو.

إن قارئ الكتاب لن يشعر إطلاقًا بأن العمل جماعي بل سيخوض فصول الكتاب وموضوعاته المرتبطة أساسًا بعلاقة الإنسان بالبحر في العصر الوسيط وكأنه يقرأ كتابًا ألفه باحث واحد. كما تجدر الإشارة إلى أن الكتاب درس منهجيًا، يقتدي به كل منخرط في البحث الجماعي داخل الشعب والمختبرات والورشات البحثية الأكاديمية.

عنوان الكتاب: غواصة الإسكندر: الإنسان والبحر في العصر الوسيط
المؤلف: جماعة من الباحثين
الناشر: Vendémiaire باريس فرنسا
سنة النشر: ٢٠١٨
الصفحات: ٢١٦ ص
اللغة الفرنسية.

* كاتب مغربي



العصور الوسطى.

يبين فصل «المرافئ والمجتمعات الساحلية» التغيير الديموغرافي والطوبوغرافي للمجتمعات والمناظر الطبيعية المرتبطة بالبحر، والذي ينبثق من استغلال الموارد البحرية المحيطة بالموانئ، التي تعمل كواجهة للمدن، ولهذا السبب غالبًا ما تقع عند مصب الأنهار، مثل روان وهامبورغ، وأحيانًا ما تتميز بقربها من أحد الجسور كما في مدينة نانت، مما يجعل المدينة ملتقى طرق تجارية. وقد شهد ازدهار أنشطة الموانئ إنشاء مدن جديدة، مثل لوبيك وريغا في القرن الثاني عشر، وظهور مراكز سياسية وتجارية، بما في ذلك البندقية، التي تطورت تجارتها البحرية وعرفت ازدهارًا لا مثيل له.

وفي هذا السياق يسوق المؤلفون مثال مدينة جنوى، التي شهدت في العصور الوسطى طفرة اقتصادية مع مطلع العام ١٠٠٠، من خلال العدد الكبير من المنشآت الحضرية الكبيرة التي شغلت مساحات شاسعة، مما دفع السلطات إلى إصدار لوائح التخطيط. وبذلك أضحت الميناء معبرًا ضروريًا ونقطة عبور للبضائع، وهو أيضًا نقطة عبور للإنسان: المهاجرون من صوب والتجار يحتشدون مع الحجاج، مما يجعل فضاءات الموانئ أماكن للاختلاط اللغوي وربما العرقي. ولكن في هذه الفترة كلما تزايدت الكثافة السكانية، ازدادت الشكاوى من التلوث الصحي، ويقدم المؤلفون مثالًا بميناء عكا في فلسطين عام ١١٨٥. ونجد في الكتاب أيضًا فئات اجتماعية ظهرت مع ازدهار النشاط البحري مثل الصرافين والمصرفيين، وهي شخصيات لا غنى عنها للتجارة في القرن الثاني عشر لتعاملهم مع أموال البنوك وسندات الصرف. وأخيرًا، تتم الإشارة

والتروس ذات الرسومات متعددة الدلالات الخاصة ببحر الشمال، أو القوارب والسفن ذات الاستعمالات العسكرية والتجارية، في البحر الأبيض المتوسط. داخل هذين الفضاءين، حاول الصانع تسهيل القدرة على المناورة، لتمكين الملاحين من النجاح في مهماتهم، من خلال الاختراع الرئيسي للدفة الصارمة، المثبتة على الأسط. يظل فن الملاحة عملاً تجريبيًا كان في الأساس عبارة عن ملاحنة على السواحل، ولم يتوغل في المحيطات حتى ظهور الخرائط الملاحية في القرن الثالث عشر التي مكنت الملاحين من الإبحار بدقة عالية.

كذلك اهتم المؤلفون بالحياة في البحر، أي الحياة اليومية للبحارة، التي لم توثق، للأسف، بشكل جيد، باستثناء حكايات الحجاج التي وردت في عدد من المصادر. ويتحدث الكتاب عن بعضها، كما يورد حيزًا للحديث عن طاقم السفن، الذي يجب أن يكون في حالة من الانضباط الصارم، ويتكون في الغالب من الذكور. بالإضافة إلى المجندين، نجد أفرادًا من المتخصصين: الموسيقيين، والحلاقين، والنجارين، إلخ. أما النظام الغذائي فهو بسيط ويعد أساسًا من المنتجات غير القابلة للتلف نظرًا لطول فترة الرحلة. ويأتي الحديث بعد ذلك عن مخاطر البحر المنتشرة في كل مكان من (الأمراض، وتحطم السفن) وتظهر الوثائق أن الطابع الديني يغطي على طقوس طواقم السفن ويبرز كذلك في الأسماء المرتبطة بالعقيدة التي تطلق على السفن. ويتوقف المؤلفون عند ظاهرة العنف المتمثلة في الغارات النورماندية، التي شاركت فيها المرأة بشكل استثنائي، وأعمال القرصنة في البحر الأبيض المتوسط مما جعل البحر مصدرًا للثراء، لكل من الفقراء والنبلاء على حد سواء، كما هو الحال مع لويس دي لا ترمولي، أميرال لاغويان في نهاية القرن الخامس عشر.

يتطرق الفصل الرابع إلى الموارد البحرية، حيث يستعرض المؤلفون مختلف الأنشطة والثروات المستمدة من البحر من طرف الإنسان في العصور الوسطى. ويحتل الصيد مكانة بارزة؛ فهو ضروري أثناء الصيام أو الصوم الكبير، ويتم البحث عن الأسماك بعد ذلك في الصيد الساحلي (على سبيل المثال في منطقة البروتان) وفي الصيد على مسافات بعيدة (حتى غاليسيا)، بحيث نظمت المعارض السنوية منذ القرن الثالث عشر، وهذا ما دفع السلطات الحضرية إلى تنظيم النقل البحري لمسافات طويلة لأغراض صحية، كما هو الحال بالنسبة لروان في عام ١٤٢٢. كما يتم استغلال البحر لمنتجاته القيمة: الشعاب المرجانية واللؤلؤ والحباب الأسود... إلخ. باختصار كان البحر مصدر طعام بالنسبة لسكان



الأطفال والعائلات في العصر الرقمي.. لمجموعة مؤلفين

فينان نبيل *

يحتوى كتاب «الأطفال والعائلات في العصر الرقمي..» التعلم سويا والتشبيُّع الثقافي من وسائل الإعلام» على مشروع بحثي متكامل أجراه عدد من الباحثين في مجال: التربية، والتكنولوجيا، وعلوم التعلم، والإعلام - كلُّ في تخصصه لاستكشاف التفاعل الدينامي بين الأطفال والأسر، والأقارب، والمعلمين في ظل الطفرة الرقمية الحديثة، وما لحقها من وسائل إعلام جديدة. ويبرز الكتاب مختلف الطرق التي توفر بها وسائل الإعلام الرقمية منافذ جديدة للتعلم بشكل فردي، أو جماعي سواء في المنزل، أو المدرسة، والدور الذي تلعبه في إيجاد فرص تعليمية، ومدى تناسب هذا الدور مع حجم الاستثمارات الوطنية، والمجتمعية، والفردية الضخمة في جميع أنواع الأجهزة، والشبكات، والمحتوى الرقمي، فضلا عن التكلفة الأكبر التي يتم إنفاقها على التدريب والخبرة، وإعادة تشكيل البنية التحتية للمجتمع لاستيعابها وتسخيرها للجمهور.

يستخدمونه بمفردهم، وإلى مثل هذه النتائج وصل «ستيفنز وبينويل» أحد باحثي هذا الكتاب، مستخدما «تجارب تلقائية، وأخرى مصممة للأسر التي تستخدم الوسائط الرقمية معا سواء في اللعب، أو البحث، أو القراءة، وماذا يقول أفراد الأسرة لبعضهم وهم يشاهدون التلفاز أو يلعبون الألعاب الرقمية، أو يتصفحون شبكة الانترنت، مع التركيز على التفاعلات التي تتم بين شركاء التعلم أثناء تفاعلهم مع وسائل الإعلام وحولها، وكيف يؤثر التفاعل على العلاقة بين أفراد الأسرة، وأثبتت نتائج البحث أن المشاركة بين وسائل الإعلام تحافظ على استمرار التواصل بين أفراد العائلة لفترات زمنية أطول.

توصل الباحثون إلى أن الوسائط الرقمية لها تأثير إيجابي في التعلم وتطوير نمط الحياة إذا تم استخدامها بواسطة الأسرة سويا، فهي تدعم ارتباط الأسرة، وتؤدي إلى الاستفادة من التكنولوجيا بشكل مميز وتمكن الأسر من التغلب على التحديات المختلفة والتي قد تنتج عن الاستخدام المنفرد للأبناء.

ويؤكد هذا البحث تأثير التنوع الثقافي والاجتماعي والاقتصادي في الحصول على خدمات كافية فيما يخص التعلم، وأشارت الأبحاث الاستقصائية إلى أن ٧٦٪ من السكان كانوا من ذوي الأصول الإسبانية البالغين الذين يملكون هواتف خلوية، في مقابل ٩٧٪ من السود، و٨٥٪ من البيض، وجدير بالذكر أن البحث أعطى أولوية لثلاثينيين لأنهم يشكلون نسبة كبيرة ومتنامية من الأسر التي لديها أبناء في سن التعليم الثانوي في الولايات المتحدة.

- ثانيا: يتركز اهتمام الباحثين على تعزيز قيمة وسائل الإعلام الرقمية والوسائط الجديدة في حياة الأسر، وإشراك الآباء في أساليب التخطيط، واهتمامهم باكتساب

والقيم، والممارسات، والطرق التي تستخدم بها الأسر والأطفال وسائل الإعلام الرقمية، وكيف يمكن أن تعزز التعلم والعلاقات الأسرية من منظور جديد دقيق قائم على التجريب في سياقات اجتماعية واقتصادية مختلفة.. وتقدم فصول الكتاب دراسات حالة وأمثلة من واقع الحياة، وتحليلات وبيانات ومسحا على نطاق واسع، وأسفرت عما يلي:

- أولا: إن المشاركة بين الأبناء والآباء تساعد الأسر على استخدام الوسائط بشكل أذكى، ففي استبيان عبر الإنترنت تم إجراؤه على ألف وخمسمائة وسبع وسبعين أسرة، مع التركيز على من لديهم أبناء من الفئة العمرية من عامين حتى اثني عشر عاما، إضافة لسبع دراسات ميدانية على أسر من السود، ومن الأصل اللاتيني- الإسباني في أماكن تجمعهم بالولايات المتحدة الأمريكية، حول كيفية استخدام آبائهم الوسائط التعليمية، ومدى تأثيرها عليهم. ومن خلال الدراسات، ظهر اختلاف في رؤية أولياء الأمور بشأن المنافع والأضرار الناتجة عن التكنولوجيا؛ إذ يشعر ٥١٪ منهم بتفوق المنافع على الأضرار عندما يتعلق الأمر باستخدام الطفل البرامج وممارسة الألعاب عبر الهاتف المحمول، عند استخدام الطفل الشبكات الاجتماعية بنسبة ٢٦٪، وتساوى المنافع والأضرار عند ٣١٪ من أولياء الأمور، وبشأن تأثير المدرسة في جمع الطلاب للمعلومات من خلال التكنولوجيا وزيادة تحصيلهم الدراسي وتعديل سلوكهم، جاءت نسبة تفوق المنافع على الأضرار بنسبة ٥٣٪.

ويعدُّ هذا البحث امتدادا لدراسات أخرى تمت في العام ١٩٧٠م حول «التلفاز»، وكان يعد آنذاك وسيلة الإعلام الأهم؛ فقد أثبتت تلك الدراسات أن الأطفال الذين يستخدمون التلفاز لأغراض تربية وتعليمية مع البالغين من الأسرة يكون تعلمهم أكثر فاعلية ممن

اكتشف الباحثون أن هناك بعض الأفكار السلبية لدى الآباء عن الوسائل الرقمية تحول دون تحقيق الاستفادة القصوى منها في عملية التعلم، من تلك الأفكار أن الروابط العائلية تتمزق والوقت يتبدد على حافة الشاشات الرقمية الشخصية، وأنها تتسبب في سلبية الأطفال، وإهدار وقتهم، ويقتصر دورها على تقديم المتعة والتسلية.

ويسعى مؤلفو هذا الكتاب إلى نشر الوعي لدى الأسر لمجابهة تلك الأفكار السلبية السائدة عن الوسائل الرقمية، ومواجهة جهل الآباء بالتطورات التي طرأت على وسائل المعرفة الرقمية المختلفة، ويسعى الكتاب لإيجاد خبرات إيجابية لديهم حول الفائدة التي تقدمها وسائل الإعلام للجمهور، منها تنوع مصادر التعلم، وتقليص التفاوت وعدم التكافؤ في فرص التعلم.

يُعرف الإعلام بأنه الوسيلة الاجتماعية الرئيسية للتواصل مع الجماهير، وله عدة وسائل مؤثرة على نطاق واسع كالصحف والمجلات، والراديو، والتلفاز، وحديثا الإعلام الإلكتروني الذي يعدُّ من وسائل الإعلام الحديثة التي تعتمد على الاستفادة من تكنولوجيا المعلومات الإلكترونية من خلال شبكة المعلومات الدولية (الانترنت)، وأية وسيلة أخرى من الوسائل القائمة على المعلومات الرقمية.

وتختلف وظائف الإعلام بين المجتمعات، ومن أهمها تحقيق التنشئة الاجتماعية عن طريق توفير المعرفة المناسبة للأفراد؛ مما يساهم في تعزيز تفاعلهم مع المجتمع، ومشاركتهم في الأحداث العامة، ويؤدي ذلك إلى تطوُّر وعيهم الاجتماعي، إضافة للتربية من خلال تعزيز التطوُّر العلمي والثقافي، ونشر المعرفة.

بدأ فريق العمل في مشروع هذا الكتاب عام ٢٠١٣ «في شكل مجموعة من الأبحاث التي تتعلق بالثقافة العائلية،



أنفسهم، وتجنب الملل، يستخدم كل أعضاء الأسرة وسائل الإعلام للتواصل، والتنسيق فيما بينهم والترابط، والتكافل، بل حتى الانعزال والتحرر من بعضهم البعض. وسائل الإعلام الرقمية ذات منفعة كبيرة، وتساعد على التنوع وقهر النمطية، وتحفز التعاون بين المدرسة والمجتمع والمنزل في عملية التعلم، وخلق فرص أكثر تكافؤاً في بناء الخبرات.

ويؤمن الاستخدام المعتدل للإنترنت، وتقليل مدة البقاء أمام الأجهزة الإلكترونية، فرصة للاستفادة القصوى من وقت الأطفال، وتنشيط ذاكرتهم من خلال ألعاب الذكاء والتركيب وغيرها، فضلاً عن فرص لا محدودة للتعلم واكتساب المهارات المختلفة، وثروة من المحتوى المتنوع الغني، ومنابر التعبير الحر، وتبادل الخبرات.

وختاماً.. فإن هذا الكتاب «الأطفال والعائلات في العصر الرقمي.. التعلم والتشبع الثقافى من وسائل الإعلام»، يقدم دراسة عن المشاركة بين الأسر وأطفالهم في مجال التعلم الرقمي، فقد طور الأطفال خبراتهم في البحث وتصميم المعرفة التكنولوجية، وأصبحوا وسطاء المعلوماتية في أسرهم، ويات من الأهمية أن يشارك الآباء أبناءهم في وسائل الاتصال حتى يشكّلوا دعماً لأبنائهم المسحورين بالعالم الفضائي المكتشف حديثاً. فقد قدم الكتاب عدداً من القصص لأسر كان أعضاؤها في كثير من الأحيان «وحيدين معاً»، يقيمون في منزل واحد، وكل منهم في غرفة منفصلة يستخدم الإنترنت من خلال الحاسوب، أو الهواتف الذكية؛ مما قد يهدد الروابط الأسرية على الرغم مما يمكن تحصيله من معرفة، وما يتبادلونه من معلومات؛ لذا كانت المشاركة أمراً ضرورياً، وقيمة اجتماعية علياً.

يهدف مشروع البحث إلى إبراز أهمية التفاعل الإيجابي الذي يحدث بين البالغين والأطفال، خاصة في ظل تزايد عدد الأجهزة في المنزل الواحد، بدلاً من الاستسلام لمصير مجتمع «وحيد رغم اجتماعه».

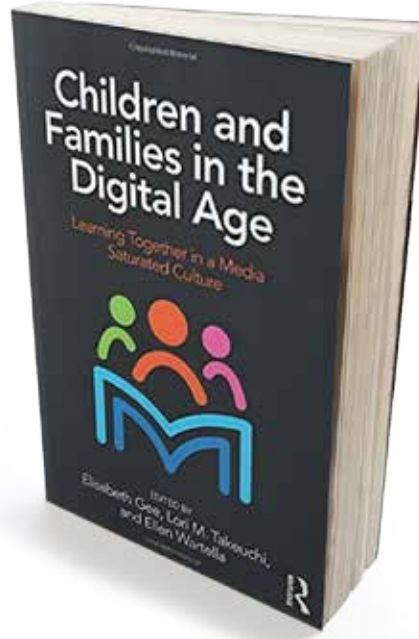
– الكتاب: «الأطفال والعائلات في العصر الرقمي: التعلم سويًا والتشبع الثقافي من وسائل الإعلام».

– المؤلفون: اليزابيث جي، ولوري تاكوشي، وألين وارتيلا.

– الناشر: روتليدج، الولايات المتحدة الأمريكية.

– تاريخ النشر: 2018م.

* كاتبة مصرية



وتعطيهم أملاً في الحصول على فرص اجتماعية أفضل. ويؤكد الكتاب على الحتمية التكنولوجية، وكيف أصبحت التكنولوجيا موجهة للسلوك البشري، كما يؤكد أهمية العلاقات الاجتماعية الجديدة القائمة على المشاركة في التعلم سويًا عبر وسائل الإعلام الرقمي، وإن كان يصعب التنبؤ بكيفية استخدام الأسر لهذه الوسائل؛ لأنه أمر يتوقف على عدة عوامل تتحكم في طرق توظيف التكنولوجيا لدعم التعلم؛ مثل: قائمة الاهتمامات، والمحتوى، والمشاركة في اللعب، فقد شرح أحد الآباء كيف اجتاز هو وابنه «فضاءات الوسائط المتعددة» في استخدام الكتب، والفيديوهات، والمكتبات عبر الإنترنت. ومثال آخر استفاد فيه الوالدان من تطبيقات الترجمة للمشاركة في مساعدة أبنائهم في واجباتهم المنزلية، وتحسين مهاراتهم اللغوية أيضاً. ورغم هذه النماذج الإيجابية التي استطاعت دمج وسائل الإعلام في حياتها والإفادة منها، واجهت عائلات أخرى صعوبة في تحقيق ذلك، خاصة في بعض الأسر ذات الدخل المنخفض ممن ليس لديهم وعي كاف بالحصول على مزايا الوسائط الرقمية في التعلم في المنزل؛ فقد شعر بعض الآباء بأنهم مهمشون لأنهم لا يملكون المهارات اللازمة لمراقبة ما يفعله أطفالهم على أجهزة الكمبيوتر المحمول في المنزل.

ويقوم هذا الكتاب على أسس تجريبية، تترك القارئ العادي بين الخوف والأمل، حول عالم التكنولوجيا الذي يزداد تعقيداً بشكل مستمر، وعمل الباحثون لهدف مشترك يتمثل في إنتاج بحث قد يوجه الممارسين من المعلمين وصانعي السياسات ومنتجي الوسائط في تطوير البرامج والسياسات المتعلقة بالتعلم في العصر الرقمي، تلك البرامج التي يستخدمها الآباء في التعليم والترفيه، وشغل بال أطفالهم، فيما يستخدم الأطفال وسائل الإعلام للعب، والتعلم، والاكتشاف، والتعبير عن

الوعي بكيفية استغلال تلك الإمكانيات في دعم التعلم، واستنتجوا أن وسائل التعلم الرقمية تحقق المساواة بين الأجيال في الحصول على مصادر المعرفة، كما تمكن الأسر من استكشاف الأخطاء وإصلاحها، وتعزيز التعلم القائم على حل المشكلات، كما يؤدي تعدد التطبيقات لتنوع خبرات التعلم وفقاً لمجالات الاهتمام لكل المتعلمين. وأكدت نتائج الأبحاث أن هذه التطبيقات تعزز التواصل بين المدرسة والمنزل، كما تعزز التواصل داخل الأسر نفسها فيؤدي الأبناء دور وسطاء التكنولوجيا والمعلوماتية، وقد يتخذ الآباء أحياناً دور المعلم، ويقوم الشباب بدور الوسيط المعلوماتي لوالديهم، وإيجاد طرق تلخص لهم المعلومات الكاملة من أجل تجاوز الأمية الرقمية لديهم، كما قدم الكتاب كيفية تأثير الأخوة سواء بشكل مباشر أو غير مباشر في الأطفال الصغار، وتكون التأثيرات المباشرة في شكل أدوار تدريسية صريحة، وإدخال أشكال جديدة من التكنولوجيا، أو غير مباشرة في تأثيرهم على معتقدات الآباء حول وسائل الإعلام الرقمي الخاصة بالأطفال، وتصوراتهم لمهاراتهم التكنولوجية. ولم يغفل الباحثون دور الإخوة فهم يقومون بدور الحارس على إخوتهم الصغار، ورفقاء على المحتوى الرقمي الذي يتعرضون له في كثير من الأحيان، ومواجهة المتطلبات التي قد يحتاجونها في استكشاف اهتماماتهم وإحداث التواصل بين خبرات التعلم.

يعني ذلك أن بعض الآباء النشطين قادرين على التعامل مع الوسائط الجديدة والبحث عن مصادر المعرفة، وجليد بالذکر أن بعض الآباء يستخدمون مواقع التواصل الاجتماعي -مثل: فيسبوك- للحصول على المعلومات ومشاركتها، ويستخدمونها كأحدى وسائل التفاعل العائلي مما يقدم فائدة تفاعلية مباشرة مع الأبناء، وأثبتت الدراسات أن الآباء والأبناء يتعلمون سويًا في جلسات اللعب ومشاركة الوسائط (التلفاز، وألعاب الفيديو والألعاب الإلكترونية... إلخ).

وتساعد وسائل الإعلام الرقمي أيضاً في التعلم مدى الحياة، وفي أوقات كثيرة، وغير متوقعة، فهي تعين المربين في المنزل على تهيئة بيئة داعمة لتعلم أطفالهم، كما تستخدم في الهيئات الأكاديمية والمدارس الوسائل الجديدة لدعم المعرفة الثقافية وتسهيل التعلم الأكاديمي، مع وجود بعض الاستثناءات لأسر ترى أن الوسائط لا تدعم المهارات المدرسية المتعلقة بالمحتوى المعرفي، كما شعروا أن وسائل الإعلام لا تكون قادرة في كثير من الأحيان على أن تكون تربية وترفيهية في آن واحد.

وأوضح الباحثون -خلال هذا الكتاب- أهمية الوسائط الجديدة في استيعاب الأبناء الأقل حظاً؛ فالوسائط قد تعوضهم ما قد ينقصهم من فرص التعلم داخل المدرسة،



داروين في المدينة: التطور في الغابة الحضرية مينو سخيلتهاوزن

سعيد الجبري *

هذا كتاب عن الطبيعة في المدينة، اشتغل فيه الباحث مينو سخيلتهاوزن أستاذ علم الأحياء التطوري في جامعة ليدن الهولندية، على كيفية تحكم التحضر في تطور الطبيعة والحيوانات، وكيفية تكيف الطبيعة مع البيئة الحضرية، منطلقاً من آليات مجاله العلمي الذي يُعنى بدراسة الكائنات الحيّة (أسلافاً وأخلاقاً) وتطورها عبر الأجيال، وتأثيرها وتمايزها عن بعضها بعضاً عبر الزمن

فحيوانات المدينة، مثلاً، تصبح أكثر جرأة، وتتطور الأعشاب الضارة في الشارع إلى نباتات جديدة. أي أنها تتطور إلى نوع جديد تماماً، إذ يبدأ فصل جديد في تطور الحياة على الأرض، فصل لا يختفي فيه التنوع البيولوجي فقط، وإنما يشهد حيوانات ونباتات جديدة، بحيث يحدث شكل من أشكال التطور، بمعدل منهل لم يكن يحلم به داروين نفسه.

وتتعدل شروط البقاء على قيد الحياة في المدن، فالمدينة في نظر سخيلتهاوزن ليست أرضاً بيولوجية، بل على العكس، فهي أشبه بمختبر نابض بالحياة، حيث تجري تجارب تطورية مختلفة، بحيث لا يُمكن لجميع الأنواع البقاء، إلا إذا أحسنت التأقلم. فالتكيف المسبق - بما هو امتلاك خاصية موجودة بالفعل - شرط حيويّ رئيس، يساعد على البقاء في المناطق الحضرية. وإذا ما نجت الأنواع من خلال ذلك التأقلم في المدن، فيُمكن أن يحدث الانتخاب الطبيعي، من حيث هو تمايز غير عشوائي وآلية رئيسة للتطور، فعلى سبيل المثال: يتطور حمام المدينة أكثر بعد التأقلم، بالتكيف مع الظروف الملوثة، فبسبب التلوث، والمصانع، والمعادن الثقيلة التي يستقبلها حمام المدينة، يكون ريشه أكثر دكناً، مقارنةً بالحمام الذي يعيش في ظروف طبيعية خارج المدينة، ويحتوي الريش الداكن على خلايا تحتوي على المزيد من الميلانين، ونتيجة لذلك، فإن الريش الداكن أكثر ملائمة لحمام المدينة، وهو يتطور إلى حمام داكن أكثر مقاومة للمعادن الثقيلة، مع ملاحظة أن هناك أنواعاً وراثية لكل من الريش الفاتح والداكن، فعندما يكون هناك تغيير في البيئة المعيشية، يمكن أن تكون المتغيرات الجينية المؤاتية موجودة بالفعل في النوع.

هذه المتغيرات المؤاتية ستحدث بعد ذلك على نحو متكرر، وهذا ما يسمى بـ«التطور الناعم» الذي يرتبط غالباً بالتغيرات الطفيفة. ومن ناحية أخرى، يمكن أن يحدث التطور الحضري أيضاً بسبب طفرات جديدة، وهي التي يُطلق عليها «التطور الصعب». وهذه الطفرات هي تغيرات في الحمض النووي تنشأ في الجينات بالمصادفة. ما يعني أن الطفرات يمكنها تغيير

(1809)، التي ضمّنها كتابه المؤثر في العلم الحديث (أصل الأنواع On the Origin of Species) الذي يمثل إحدى ركائز علم الأحياء التطوري، والذي أثار - منذ صدوره عام 1859 وما زال - جدلاً عظيماً في الأوساط العلمية والفلسفية والدينية، حيث ظلت نظريته التطورية غير مقبولة حتى عام 1940، لكنها أدت، بعدئذ، دوراً رئيساً في تطور البحث العلمي، خاصة بعد اندماجها مع العلوم الأخرى كالوراثة والأعصاب والبيولوجيا وعلم النفس... إلخ، وتم تطبيق مفهوم «البقاء للأصلح Survival of the fittest» - الذي ابتكره الفيلسوف الإنجليزي هيربيرت سبينسر، واستعمله داروين في نظريته لإيضاح عملية الانتخاب الطبيعي - إلى جانب مفاهيم النظرية الأخرى على العديد من النظريات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية والتجارية التي تتحكم بالسوق المالي للدول الكبرى، وغيرها.

ولئن كان هناك سؤال منطقي حول ما إذا كان للإنسان تأثير حقيقي على الحياة نفسها، وعلى التطور من حيث هو، فإن المؤلف يرى أن الإنسان هو مهندس نظام الطبيعة البيئي في شكله النهائي، مبيناً عمليات التطور في الظروف الطبيعية التي يحدث فيها التغيير، ولا سيما في المدن، وكيف تتكيف الكائنات الحية بسرعة مع البيئة الحضرية. فهذه الظروف البيئية الجديدة تدفع الأنواع إلى التكيف إذا ما أرادت البقاء في بيئة متغيرة. لكن أنواع المدينة تختلف، بعض الشيء، عن الكائنات الأصلية في البيئة الطبيعية، ولتبيان ذلك يقدم المؤلف صورة واضحة لما يعنيه التطور من خلال أمثلة رائعة من الانتخاب الطبيعي، على خصائص مختلفة، مثل: اللون، علم وظائف الأعضاء، والسلوك.

لكن ماذا يحدث للطبيعة عندما ينتشر التحضر أكثر فأكثر؟ وفقاً لسخيلتهاوزن يمكن للطبيعة أن تسلك اتجاهاً منطقياً واحداً فقط، هو اتجاه المدينة، ونتيجة لذلك، يأخذ التطور دوراً جديداً بوتيرة سريعة للغاية، على عكس الاعتقاد السائد؛

ولما لسخيلتهاوزن من عمق في دراسة التنوع البيولوجي والتطور البيئي، فقد صدرت كتبه وأبحاثه العلمية في ترجمات بلغات عديدة كالألمانية، والصينية، واليونانية، واليابانية، والفرنسية، والإيطالية، وصدر كتابه (داروين في المدينة Darwin in de stad) باللغة الإنجليزية في كل من بريطانيا وأمريكا، عدا عن ترجمتين إلى الألمانية واليونانية، وخمس طبعات بالهولندية في عام واحد، وقد حظي جهد سخيلتهاوزن بتقدير علمي رفيع، فنال كتابه هذا جائزة يان فولكرز لعام 2018، باعتباره أفضل كتاب هولندي في الطبيعة. يتألف الكتاب من تمهيد، تليه أربعة فصول رئيسة تتفرّع في ثمانية عشر مبحثاً حاول المؤلف أن يقدم من خلالها المفاهيم التطورية والبيئية المعقدة لجمهور عام غير متخصص، فقد استهل سخيلتهاوزن كتابه بإحاطة عن ضاحية المدينة مدخلاً منهجياً لمقاربة موضوع البحث والدراسة، ثم جعل الفصل الأول عن حياة المدينة، حيث الإنسان المسؤول الأول عن هندسة النظام البيئي بشكل بهائي، والبيئة المحيطة به في مركز المدينة حيث أهل المدينة والمناطق الحضرية الذين يتعايشون مع أنواع شتى من الحيوانات والنباتات، فيما عرض في الفصل الثاني مشاهد المدينة، والحقائق التي رآها عن الأساطير والخرافات السابقة عن بعض الأنواع كالحشرات، مقارنةً مثلاً بين فأر الغابة وفأر المنزل، معرجاً من ثم على المدينة الكبيرة حيث الأضواء الساطعة التي تمثل بيئة جديدة تتفاعل فيها أنواع معينة، على عكس النمط الذي كان في بيئتها الأصلية خارج المدينة، حيث العتمة الملائمة لوجودها، وقدم في الفصل الثالث عرضاً شائقاً عن ترويض الذات، وجوّالي المدينة، وكذا الجنس والمدينة، في سياق تطور الأنواع وتأثيرها، أما الفصل الرابع والأخير فقد خصصه لـ«مدينة داروين»، حيث يكون «التطور في عالم متشابك»، وفق آليات معينة اشتغل عليها في بلورة رؤيته البحثية في الكتاب، ثم ختم الفصل بـ«تصميم تطوري». يحتوي الكتاب على قيمة علمية تمثل امتداداً منهجياً متطوراً لنظرية عالم الطبيعيات البريطاني تشارلز داروين (1882-1882)



الجينات، بحيث تتغير خاصية ما أيضاً. فالاختلاف الجيني ينشأ تحت ضغط من التغيرات في البيئة، وهذا أمر مؤكد، يشرحه سخيلتهاوزن بطريقة رائعة تبين كيفية نشوء هذا الاختلاف واستمراره أيضاً، وكلما كانت تلك الخاصية المشار إليها مؤاتية للبيئة المعيشية، كان للأفراد الذين لديهم هذه الخاصية فرصة أكبر للبقاء.

ومن المهم، للحفاظ على التنوع البيولوجي، الحفاظ على الموائل الطبيعية قدر الإمكان، مع إدراك أهمية الدور الإنساني في التطور الحضري، فالتطور - يقول سخيلتهاوزن - لا يستغرق وقتاً طويلاً دائماً، فلا يتعين عليك، لكي ترى التطور، أن تسافر في الآفاق، أو تنكب على دراسة الحضريات مثلاً. فعملية التطور قريبة جداً، فمع المدن والطرق والبنى التحتية الأخرى، يتم إنشاء مجموعة كبيرة من الموائل لأكثر أنواع النباتات والحيوانات تنوعاً، التي تستقر هناك ومن ثم تتكيف مع بيئاتها الجديدة. وعندما تصبح هذه التعديلات متأصلة في جينوم الحيوانات ومن ثم قابلة للوراثة، يكون هناك تغيير تطوري.

وفي السياق التطوري يشير المؤلف إلى أن التنوع البيولوجي في المدن كبير ومتزايد. فعلى سبيل المثال: كان يوجد في مدينة بلزن التشيكية، في نهاية القرن التاسع عشر ٤٧٨ نوعاً من النباتات، وهو العدد الذي ارتفع إلى ٥٩٥ نوعاً في الستينيات، حتى صار ٧٧٣ نوعاً الآن. فهذه زيادات كبيرة. ما يعني أن التنوع البيولوجي في المدينة هو الآن أكبر منه خارجها في كثير من الأحيان، وهو ما يعززه أيضاً تدهور الأنواع في المناطق الريفية.

لعل سخيلتهاوزن بهذا الجهد العلمي يثير فضول القارئ المتخصص والعام على حد سواء، من جهة، ويعيد الاعتبار العلمي لنظرية داروين عن نشوء الأنواع وتطورها، إذ يثبت أن عملية التطور ليست طويلة الأمد، وإنما هي متسقة مع تصاعد المد الحضري، ففي المستقبل، ستعيش ثلاثة أرباع البشرية في المدينة وستشغل البيئة الحضرية المزيد من المساحة، وهناك حاجة إلى جزء كبير من بقية سطح الأرض للزراعة، فأين تذهب الطبيعة حينئذ؟ إلى المدينة. فيستنتج سخيلتهاوزن أنه عندما تذهب الطبيعة إلى المدينة، يأخذ التطور دورة منفصلة. وبفضل التكيفات التطورية التي تحدث بسرعات فائقة، يصبح الناس والطبيعة الحضرية أكثر تماسكاً بشكل أفضل، ويبدأ فصل جديد في تطور الحياة على الأرض. وفي سياق مواز يختفي، لسوء الحظ، الكثير من التنوع البيولوجي، ولكن بالمقابل فهناك أنواع جديدة من الحيوانات والنباتات التي تزدهر حتى في المدينة. وعلى نحو جزئي، بفضل تعديلات محددة على البيئة الحضرية، يمكن أحياناً العثور على تعديلات في الحمض النووي. ولئن كان كتاب (أصل الأنواع) لشارلز داروين أحد الأعمال المؤثرة في العلم الحديث، وأساساً من أسس الحداثة الفكرية الطليعية، وأحد ركائز علم الأحياء التطوري، وما زال يقبل عليه، إلى اليوم، القراء الباحثون ذوو الاختصاص والقراء غير المختصين، بعد أن تحولت نظريته إلى نزعة فلسفية شملت حقولاً عديدة،

منها علم الأحياء الاجتماعي (السيسيوبولوجي) - وهو أحد العلوم الحديثة المثيرة للجدل والخلاف - الذي يعلل ظواهر عديدة كالنزعات العدوانية، وحب التملك لدى الكائنات الحية، واضطهاد المرأة مثلاً، فيرجعها إلى أسباب بيولوجية موروثية، فإن كتاب «داروين في المدينة - لينو سخيلتهاوزن، يمثل إضافة نوعية أفادت في استخلاص نتائجها من تطور المنهجيات والعلوم التي تلت مرحلة داروين، فبنت عليها اشتغالها البحثي والمعرفي. الكتاب بصورة شاملة ثري بالمعلومات الموثقة لتاريخ التطور الحضري الحالي وحالاته، ويقدم وصفاً دقيقاً لعملية تطور الأنواع المختلفة، وما يستتبع ذلك مستقبلاً، وفق منهجية علمية متخففة من الأيديولوجيات، لا تنطلق من تفسير ميكانيكي لمبدأ البقاء للأصلح، ولعل ما قدمه سخيلتهاوزن من نتائج علمية بحتة، تفتح آفاقاً في مجالات علمية أخرى مجاورة ولاسيما الاجتماعية والنفسية في تعليل الظواهر الجديدة المرتبطة بالتطور التقني المهول، لكن ليس على نحو ما تمّ مثلاً في نظرية الذكاء الطبيعي للحاسوب، إذ نُظر إلى الإنسان باعتباره إنساناً ألياً مبرمجاً بالوراثة أو الاكتساب، بمعزل عن العوامل الاجتماعية والنفسية.

(داروين في المدينة) الذي سيصدر أيضاً هذا العام في ترجمات جديدة، لا يقارب موضوع بحثه من منظور التعليل الديني للظاهرة، كما هو مؤصل في نظرية الخلق في الديانات الثلاث، فألياته في المقاربة ذات منهج علمي، وتختلف جوهرياً عن منطلقات التصور الديني على ما بين الروايات الدينية من اختلافات معينة.

الكتاب: داروين في المدينة
المؤلف: مينو سخيلتهاوزن
الناشر: Atlas contact
سنة النشر: ٢٠١٨
اللغة: الهولندية
الصفحات: ٣٥٢

* كاتب عربي مقيم في هولندا



صور من تقاليد ما قبل ستين سنة في مجتمع كيرالا.. لشاشي بهوشان

فيلا بوراتو عبدالكبير *

يحتفل أهل الغرب السنّة الخامسة والعشرين من تأسيس مؤسسة أو حركة باسم اليوبيل الفضي، كما يحتفلون السنة الخمسين والسنة الخامسة والسبعين باسم اليوبيل الذهبي والماسي على التوالي. وأهل الشرق أيضا قد غدوا يحذون حذو أهل الغرب في احتفالات هذه اليوبيلات؛ حيث عمّت جميع البلدان بما فيها الهند. وتوجد أيضا بين الهنود -لاسيما بين أصحاب الديانة الهندوسية- احتفالات بمناسبة اكتمال سنوات محددة من عمر الإنسان، أو تأسيس مؤسسة أو منظمة؛ فمثلا إذا بلغ عمر شخص أو مؤسسة أو منظمة ستين سنة، يتم احتفاله باسم «شاشتهي بورتى» (Shahthipurthy)، كما يتم احتفاله باسم «نغامي» (Navami)؛ وذلك إذا بلغ العمر تسعين سنة. تعني كلمة «شاشتهي» باللغة السانسكريتية ستين، وكلمة «نغامي» معناها تسعون. وهذا التقليد باهتمام الستينية والتسعينية لا يزال سائدا في أوساط المجتمع الهندي، رغم انتشار احتفال اليوبيل الفضي والذهبي والماسي.

كانت ولاية كيرالا قبل استقلال الهند من الاستعمار البريطاني جزءا من ولاية مدراس -حاليا ولاية «آمير نادو»- وبعد الاستقلال لما قررت الحكومة الهندية تشكيل الولايات من جديد على أساس اللغات انفصلت ولاية كيرالا التي يتكلم أهلها اللغة «المالايامية» من ولاية «مدراس» التي يتكلم أهلها اللغة «التاميلية».

ذاك «ويليام لوغان» في كتابه (Malabar Manual)، وللملكة «لاكشيمي باي» دور مذكور في إلغاء نظام الرق في منطقة «ترافانكور». ولكن بالرغم من هذا لم يتم تحرير «كورافا» وباريا «ويولايا» من الطبقات الدنيا من هذا النظام الخبيث إلا بعد فترة. وقد لعبت القوانين الصارمة الصادرة عن الحكومة البريطانية فيما بعد دورا فاعلا في إلغاء نظام الرق تماما في كيرالا. وهكذا تم تحرير عدد ١٣٦٠٠٠ عبد آنذاك في «ترافانكور» فقط والرابع منهم ممن أضافوا إلى خزانة الدولة سنويا ١٦٣٠٠٠ «باناما» (العملة الجارية ذاك العهد في «ترافانكور») كانوا في ملك الملكة.

ويتضمن الكتاب العادات والأعراف التي يمارسها جميع الملل من الهندوس والمسيحيين والمسلمين فيما يتعلق بمراسيم الزواج والحفلات المرتبطة بالولادة والأعياد الدينية، كما يتضمن الأطباق الغذائية المختلفة بين هؤلاء الأقوام. وكان من التقاليد البائدة «عرس تلبس القلادة»، وهذا التقليد مرتبط بعقد الزواج بين طبقة «إيزافا» في الهندوس. وهو عبارة عن عقد تكاح أحداث من بنات دون سن العاشرة يضع على أعناقهن العرسان سبائك ذهبية كرمز للزواج. عموماً، يتم عقد القران هذا جماعياً داخل عريش واسع، وثمة تقاليد أخرى تتعلق بكل من تجهيز العريش مثل توطيد أعمده وتغطيته بأوراق شجرة النارجيل وحفلة «ليلة الزفاف»، وإعداد المآدب التي تمتد عدة أيام تترتب عليها تكاليف بالغة. ويجب أن يكون الأزواج من بني الأعمام أو الأخوال، ولا غرو أن يكونوا حتى عجائز منهم. نادرا ما يتم عقد القران بشكل فردي. والظريف أن عقد القران هذا أي فقط، ليست له أي صلاحية شرعية لحياة زوجية في المستقبل. لهذا؛ السبب تقدم رجال مصلحون بمن فيهم الروحانيون؛ منهم مثل: «شري نارايانا جورو» لإنهاء هذه العادة

لاعتقاد طريف بين الهندوس يرثونه جيلا بعد جيل، وهو أن إله «أيايا» في معبد جبل شابري إله أعزب، يكره أن يرى فتيات في سن الحيض، خوفا من إثارتهم شهوته الجنسية المضغوطة. وواضح أن موقف الأحزاب المعارضة مبني على استغلال سياسي يستهدفون من خلاله جذب أصوات الناخبين في المستقبل. وهذه الأحزاب لا يخفى عليها أن الحكومة -أيا كانت نظريتها- ملتزمة بتنفيذ الحكم الصادر عن المحكمة العليا. ومقاومة لهذه الاحتجاجات، نظمت الحكومة حملة جماهيرية في أول يناير من العام الجديد ببناء «جدار نسوي نهضوي» اصطفت فيه زهاء خمسمائة ألف امرأة من أقصى شمال كيرالا إلى أقصى جنوبها بالعاصمة. ويبدو أن هذه الاحتجاجات سياسية أكثر منها دينية، ربما تنخفض درجة حرارتها حين يبرد الجو السياسي؛ لأن الأحزاب السياسية لا تستطيع إلا أن تعترف بسيادة القانون ما دام هناك حكم صادر عن المحكمة العليا. ومن قبل أيضا كانت المعابد الهندوسية محظورة على طبقات منهم في القرن التاسع عشر، ويذكر هنا اعتصام المصلحين التقدميين التاريخي أمام «معبد شيفا» بمنطقة «فايكوم» بقيادة الغاندي وحزب المؤتمر؛ لتوفير الحرية للطبقات الدنيا لدخول هذا المعبد، والمشي في الشارع المؤدي إليه. وبفضل جهود بذلتها الحركات الإصلاحية بين الهندوس، أصدرت «سيتوباي» ملكة «ترافانكور» آنذاك مرسوما يسمح لهم بتلك الحرية. ومن جهة أخرى، فإن مسلمي كيرالا نرى فيهم أيضا حتى الآن من يمنح إماء الله من المساجد، خلافا للواقع في كثير من البلدان الإسلامية.

ونظام الرق أيضا كان راسخ الجذور في مجتمع كيرالا في القرن التاسع عشر. ووفقا للإحصائية التي جرت عام ١٨٣٥، كان عدد العبيد ١٥٩٠٠٠ كما يقول الحاكم البريطاني في كيرالا آن

الكتاب الذي يتم عرضه هنا وجد النور بمناسبة ستينية تشكيل ولاية كيرالا. والكتاب مرآة تنعكس فيها صور من ملامح حياة المجتمع في كيرالا من الهندوس والمسلمين والمسيحيين قبل وما قبل ستين سنة. والمعلومات التي جمعها الكاتب فيه مفيدة وشيقة، خاصة للجيل الجديد والذي قد يبدو بعضها غريبا عليه. يجد القارئ في صفحات الكتاب تقاليد تتعلق بمناسبة تحتفل بها هذه الملل المختلفة، منها عادات سادت ثم بادت، ومنها تقاليد نافعة لا تزال موجودة وتقاليد ضارة تركها المجتمع بفضل جهود بذلتها المصلحون منهم، وتقاليد فاسدة لا يزال يتمسك بها المجتمع، رغم أنها قد عفى عليها الدهر. ومن هذه التقاليد الفاسدة الجارية حتى الآن: منع نساء ما بين العمر العاشر والعمر الخمسين من دخول بعض المعابد الهندوسية. وحين تكتب هذه السطور تكتظ شوارع كيرالا باحتجاجات شديدة يُشارك فيها كثير من النساء الهندوس، تقودها قيادات أحزاب سياسية معارضة من حزب «بي.جيه.بي» الهندوسي، والجهة الديمقراطية المتحدة بقيادة حزب المؤتمر العلماني، والتي تنضم إليها رابطة المسلمين، ومؤتمر كيرالا من الأحزاب المسلمين والمسيحيين السياسية؛ وذلك ضد موقف اتخذته الحكومة اليسارية في كيرالا بناء على حكم المحكمة العليا من سماح النسوة لدخول معبد «جبل شابري»، الذي يحج إليه سنويا مئات الآلاف من الهندوس. والغريب في الأمر أن راهول الغاندي رئيس حزب المؤتمر لعموم الهند، والقيادات الوطنية لحزب بي.جيه.بي الحاكم، وحتى بعض القيادات الدينية الهندوسية، كانوا ممن يؤيدون حكم المحكمة العليا، والأغرب من ذلك أن المعابد الهندوسية الأخرى في كيرالا تسمح للفتيات بدخولها.

إن معبد شابري هو الاستثناء الوحيد في هذا الشأن، والسبب يعود



يجدر الذكر هنا أن موكب الشيعة في احتفال شهر محرم كان يقوده جندي من طبقة «نايار» الهندوسية وهو يرفع السيف والرمح. وكانت من إنجازات الملوك الهندوس مستشفيات يتوافر فيها العلاج المجاني للمساكين؛ من بينها: المستشفى الذي بناه الملك الموسيقار الكبير «سواتي تيرونال» في «ترافانكور» في منطقة «تايبكاتوكارا». ويذكر الكاتب بعض عادات المسلمين يُوضَّح فيها جودهم وكرمهم؛ لاسيما في موسم رمضان وأيام الجمعة. يهتمون في هذه الأيام المباركة بمد يد لهم السخية نحو الفقراء والمساكين. وفي أيام الجمعة إذا وجد أحدهم غريبا في مسجدهم الجامع يأخذه معه إلى بيته ويطعمه. وقد خصص الكاتب فصلا لأمثال يتعلق بعضها بمعتقدات المجتمع وبعضها الآخر بواقع الحياة اليومية وبأعمال زراعية وتجارية. ومنها أيضا ما يتساوى بأمثال في اللغة العربية؛ مثل: «إذا زاد شيء صار ضدا» و «رب نافع ضار».

وتحت عنوان «قدوم المسلمين وإسهاماتهم في ثقافة كيرالا»، يشرح المؤلف تاريخ الإسلام في كيرالا وأسباب انتشار الدعوة الإسلامية في أوساط المجتمعات في كيرالا. ويُعتقد أن الرعي الأول من دعاة الإسلام في كيرالا كانوا مجموعة من تجار جاووا من حضرموت بقيادة مالك بن دينار. وللصدق والأمانة في المعاملات التجارية والمساواة والأخوة في التعامل الاجتماعي دور مهم في نشر الدعوة الإسلامية بين جميع فئات المجتمع في هذا البلد، خاصة بين الطبقات الدنيا منهم. لما رأوا مالك بن دينار يُصلي خلف خادمه اندهشوا منه؛ لأنهم لم يسبق لهم منظر مساواة مثل هذا المنظر في حياتهم. كان مالك بن دينار يطعم ٤٠ مسكينا كل يوم. وينقل المؤلف شواهد تدل على العلاقات الودية بين المسلمين وملك «كالكوت»، «ساموتيري»، ويشير إلى كتاب «تحفة المجاهدين» باللغة العربية الذي ألفه الشيخ زين الدين المخدم أحد علماء كيرالا آنذاك، يُناشد فيه الشيخ المسلمين ليؤيدوا ملكهم الهندوسي في حربه ضد جيوش البرتغاليين. وكان هذا الملك يُشجّع من ينضم إلى أسطول البحر من صيادي السمك على أن يعتنق الإسلام، كان قائد أسطوله مسلما يسمى «كونجي علي». ونقرأ في هذا الفصل تاريخ وخصائص الطوائف المختلفة في مسلمي كيرالا مثل «مابيل و«لابا» و«رفوتار»، كما يُشير إلى أهم إسهاماتهم مثل الطب اليوناني وأكلاتهم الخاصة والحلويات التي تندر في غيرهم.

ولم يخل الكاتب بحظ المسيحيين ومشاركتهم في بنية كيرالا الثقافية.. وخلاصة القول: إن هذا الكتاب رغم حجمه الذي يبلغ مائتي صفحة، لا يستطيع لدارس ثقافة كيرالا أن يعرض عنه.

– الكتاب: «صور من تقاليد ما قبل ستين سنة في مجتمع كيرالا»
– المؤلف: شاشي بهوشان
– الناشر: D. C. Books، كوتايام، كيرالا، بلغة ملايالا، ٢٠١٨م.
– عدد الصفحات: ١٧٤ صفحة.

* مستعرب هندي



مجتمع كيرالا؛ مثل: كتاب «صفحات سوداء من تاريخ كيرالا» للمؤرخ Ilamkulam Kunhan Pillai القديم» للمصلح الهندوسي Chattampi Swamikal. غير أن مثل هذين الكتابين يركزان على التقاليد الفاسدة التي كانت سائدة بين الهندوس فقط. وأما كتاب «شاشي بهوشان» هذا فبالرغم من نقل ٦٤ عادة سيئة كانت منتشرة في أوساط المجتمع الهندوسي، إلا أنه يتميز بمعلومات وافرة عن تقاليد نافعة وذات أهمية اجتماعية، كما يتضمّن عادات وأعرافا شائعة بين أقوام أخرى؛ مثل: المسلمين والمسيحيين، وكثير من الفرق المتفرعة من الهندوس، إضافة إلى معلومات عن أطباق وأساليب طبخ متنوعة وملابس وحلي كانت موجودة في أوساط شرائح المجتمع المختلفة، ونجد فيه أيضا تاريخ التقويم المحلي في كيرالا المسمى بتقويم «كولا» نادر الاستعمال حاليا، والأمثال المرتبطة بحياة كيرالا الزراعية وآدابها الاجتماعية. على سبيل المثال: نرى في الفصل الأول من الكتاب جملة من الآداب التي كانت تلتزم بها طبقة «نامبوتيري» في الضيافة. يستقبلون الضيف بكل احترام؛ حيث يتم تلبية جميع احتياجاته من الحمام إلى الطعام.

وقد كانت السلطات المحلية في ذلك العهد تهتم ببناء سرايا يمكن للمسافرين استخدامها أثناء الليالي ليناموا فيها مجانا. أما معابد الهندوس، فكان أكثرها ملحقا بمطابخ يُوزع منها الطعام للمساكين، وعندما تغلق أبواب هذه المعابد في آخر الليل، ينادي الراهب بأعلى صوته: «هل من جوعان محروم من العشاء؟». كانت في «ترافانكور» ٣٣ مطعما، مثلما في «كوشين» ١٢ مطعما، جميعها كانت تديرها الدولة وتوزع الطعام مجانا. وكان التسامح الديني بين الديانات المختلفة ميزة أخرى في تلك الحقبة. وفي مناطق كثيرة، توجد مساجد المسلمين ومعابد الهندوس جنباً إلى جنب. الجامع «بالايام» ومعبد «جاناباتي» الهندوسي اللذان يقومان جنباً إلى جنب في عاصمة الولاية رمز لهذا التسامح. قام ببنائهما الملك الهندوسي في «ترافانكور» لأداء الصلوات لجنوده المسلمين والهندوس.

وعلى خلفية التكالب بين إخوة السنة والشيعة في بعض بلدان العرب،

التي دمرت اقتصاد كثير من الأسر.

تقاليد الزواج وحفلاته يختلف بعضها عن بعض حسب الديانة والمناطق والفصائل المولودة من رحم ديانة واحدة، طائفة «نامبوتيري» في الهندوس كان لا يجوز لها تزويج الفتيات من داخل القبيلة إلا للأخ الكبير، وأما إخوته الآخرون فهم يختارون إنثاء من أسر طبقة «نايار»، والأولاد منهن لا يرثون أباءهم شرعاً. الأرامل في الهندوس يُمنع عليهم الزواج حسب تقاليدهم. وهذه التقاليد لا وجود لها الآن، وذلك بفضل جهود الحركة الإصلاحية «نامبوتيري يوغا شكشيماسابها» بقيادة في.تي باهاتاتيري باد.إم.إس نامبوتيري باد.أم. آر باهاتاتيري... وغيرهم في القرن الماضي. وكان تعدد الأزواج شائعا بين طائفة «نايار» وطوائف أخرى من الهندوس في تلك الحقبة، كما كان نذر بنات إلى معابد خاصة حيث يظلل فيما بعد فريسة للاستغلال الجنسي، وهؤلاء البنات اللاتي يتمتعن بمهارة في الرقص والموسيقى كن يعتبرن جواري آلهة تلك المعابد، ولكن في الحقيقة كن يستعملن لإطفاء شهوة رهبان تلك المعابد، كما كن يُقدمن إلى قصور الملوك والأثرياء، وقد تم إلغاء هذا النظام الذي يعرف باسم «نظام ديفا داسي» بقرار اتخذه المجلس التشريعي في مدراس عام ١٩٤٧. كانت الدكتورة «موتو لاشيمي راديار» التي انحدرت من إحدى أسر «ديفا داسي»، والتي أصبحت فيما بعد عضوة في المجلس التشريعي هي التي قدمت قرار ذلك المشروع في المجلس. لا يستطيع الجيل الجديد أن يقرأ هذه التقاليد الغريبة الآن إلا بخجل. ومن التقاليد الفاسدة التي महाها الدهر: الحفلة التي كان الهندوس يقومون بها بمناسبة بلوغ بناتهم سن المحيض. الأسر الثرية منهم كانت تتباهى بتبذير أموال كثيرة في هذه الحفلة. وفي جانب آخر، كان المسلمون أيضا بمناسبة ختان أطفالهم الذكور، يقدون حفلات كبيرة مصحوبة بأناشيد موسيقية يُغنيها مطربون مشهورون، تتبعها مأدب فاخرة يشارك فيها الأقارب والجيران، وحين يترك الأطفال من الأسر المسيحيين فراشهم يُحدد يوم من أيام الجمعة ليخرجوا فيه إلى المسجد الجامع القريب في موكب وهم يُحملون على ظهور الأفيال. ولكن بعد أن أخذ الأطباء دور المزين واستبدلت ساحات البيوت بمستشفيات، غابت هذه العادة أيضا من بيوت المسلمين بلا رجعة الآن. كانت حفلات الزواج بين المسلمين في الأزمان الخوالي وفقا للتواريخ القمرية، عادة تكون في ليلة الجمعة. ويُقاد العريس إلى بيت العروس في موكب بهيج تحت مظلة ملونة كبيرة وفي ضوء مصابيح غاز، وبأناشيد وأبيات مختلطة بصلوات النبي. وعندما يصل العريس إلى بيت العروس يُستقبل برش ماء الورد عليه، ويقوم أصغر إخوتها بصب ماء على قدميه من إبريق، فيضع العريس داخل الإبريق جُنيهاً. لما تبدل مكان حفل الزواج من ساحات البيوت إلى قاعات الاحتفالات في المدن، غابت هذه التقاليد عن المنظر العام.

وقديما كان المسلمون يهتمون بعقد حفلات بمناسبة ثقب آذان بناتهم الصغار للبسها بالأقراط، ولما أخذت هذه العملية تتم الآن بسهولة باستخدام آلات حديثة في دكاكين المجوهرات، ودعوا هذه العادات بتاتا.

وهناك كتب أخرى تلقي الضوء تفصيلا على التقاليد التي سادت في



لماذا لم يوجد عصر إسلامي وسيط؟ إرث العصر القديم والشرق .. توماس باور

رضوان ضاوي *

تعدّ دراسة الأستاذ محسن جاسم الموسوي المكتوبة بالإنجليزية بعنوان «: The Medieval Islamic Republik of Letters Arabic Knowledge Construction» (جمهرة الآداب في العصر الإسلامي الوسيط) (٢٠١٥) أهم ما ألف حديثاً حول مفهوم «عصر الوسيط الإسلامي»، وقدم فيها الباحث صورة أخرى عن هذه المرحلة الإسلامية الوسيطة، مغايرة لما كتبه المستشرقون الغربيون، وقد كتب الأستاذ أحمد بوحسن قراءة ومراجعة نقدية لهذا الكتاب موسومة بـ «مراجعات نقدية لمفهوم عصر الانحطاط» (صدرت ضمن كتاب «تقاطعات التاريخ والأنثروبولوجيا والدراسات الأدبية أعمال مهداة إلى عبد الأحد السبتي»، تنسيق عبد الرحمان المودن وأحمد بوحسن ولطفي بوشنتوف، دار أبي رقرق للطبع والنشر، الرباط ٢٠١٨). وضمن الدراسات الألمانية الحديثة، نشر الباحث الألماني سباستيان غونتر دراسة قيمة في مجلة التفاهم (عدد ٥٥-٥٦، شتاء وربيع ٢٠١٧ م. / ١٤٣٨ هـ. / ترجمة رضوان ضاوي) بعنوان «المدرسة بوصفها مؤسسة للتعليم في العصر الإسلامي الوسيط».

عن الصورة الكاملة، منهجية التأريخ الجيدة، بينما يتناول الفصل الرابع هذه الفترة التي تُعرض على أنها الفترة التكوينية والمزدهرة للعلوم الإسلامية؛ ويشكل الفصل الخامس خاتمة وخلاصة مركزة لهذا الكتاب.

تكمن أهمية هذا الكتاب في أنه من الدراسات الجديدة والقليلة والنادرة التي تعيد النظر في مفهوم «عصر الانحطاط» ضمن وجهة نظر تتجاوز بكثير تلك النظرة الجزئية لهذه الفترة الحاسمة من تاريخ المسلمين. فكان دور هذه الدراسة هو الكشف عن مراجعة مغايرة للمنتج الفكري والحضاري لتلك الفترة. تأتي جِدّة موضوع هذا الكتاب من خلال أطروحة الدكتور توماس باور في أن الأدب العربي في العصر العثماني والمملوكي لم يُدرَس بصورة جديّة، وأن القسم الأعظم من مخطوطاته لم يحقق، وأن إطلاق صفة «الانحطاط» على تلك المرحلة الطويلة والغنيّة من تاريخ الأدب العربي يشكّل ظلماً كبيراً للثقافة العربيّة. وقد كشفت القراءات المغايرة عن توسيع مفهوم الباحثين الجدد (توماس باور، جاسم الموسوي، سباستيان غونتر، وأحمد بوحسن) للتاريخ ما جعلهم يفهمون الانحطاط في سياق التحقيب. فقد كان السرد الغالب على تقييم فكرة الانحطاط سلبياً رسخ صفة الاضمحلال، وهي نظرية سياسية وإيديولوجية تتحكم فيها القوى الغربية، فتباحث الغربيون حول انحطاط الثقافة العربية والإتيان بأدلة دون تبرير واضح ولا تقدير منصف لما قدمته الثقافة العربية في ذلك الوقت. ولكن الجانب السياسي ليس عذراً لكي يغطي على الإنتاجات الفكرية والأدبية، كما يقول الأستاذ أحمد بوحسن.

وقد تحدث اللاهوتي والفيلسوف النمساوي فرانز شوب (١٩٣٦ - ٢٠١٦) عن أهمية اثنين من المفكرين المسلمين هما ابن رشد وابن ميمون، ابن رشد في الحوار والتسامح وتقبل الآخر، وابن ميمون في نشر التسامح والحوار في الأندلس. وجدير بالاهتمام، أن التطور بين أوروبا والشرق مختلف جداً وغالباً في الاتجاهات المعاكسة، فبدية حقبة جديدة للعالم كله بين جبل طارق وهندوكوش واضحة: أي القرون الذهبية في إفريقيا. علاوة على ذلك، فإن المساحة التي تبدأ فيها هذا الحقبة الجديدة تتوسع إلى الجنوب، فيتم دمج المزيد والمزيد من

الإمبراطورية المغولية في الشرق، والعثمانيون في الغرب، والصفويون. أثر كل هذا على الحياة اليومية، والفن والثقافة. لكن هذا لم يمنع من كون مصطلح «العصور الوسطى» يمكن التغلب على معياره الأوروبي، ومنع تصديره باعتباره مصطلحاً مضللاً يجب الاستغناء عنه. وإذا كان الباحث في الدراسات الإسلامية والعربية بمونستر توماس باور قد أطر كتابيه السابقين «ثقافة الالتباس» تاريخ مغاير للإسلام (٢٠١١) وترجمه حامد قطب عن دار الجمل في (٢٠١٦) و«توحيد العالم: عن فقدان التعددية والاختلاف» (٢٠١٨) بمجموعة من المفاهيم الأساسية التي استند عليها فيها، فقد عمل أيضاً على تأطير كتابه «هل يوجد عصر إسلامي وسيط، بمفاهيم جديدة، وراجح فيها مفاهيم قديمة أو شائعة مثل مفهوم «العصور الوسطى الإسلامية» الذي يستخدم بشكل مترادف مع مصطلح التقسيم الأوروبي، وهذا أمر خطأ ومضلل. ووفقاً لأطروحة هذا الكتاب، فإنه من غير المناسب إجراء مقارنات ثقافية غير متميزة بين تطورات أوروبا الغربية والوسطى من ناحية وتلك الموجودة في غرب آسيا من ناحية أخرى في العصور الوسطى.

يحتوي الكتاب على مقدمة وخمسة فصول. في المقدمة يشير المؤلف إلى أصل فكرة هذا الكتاب، فقد ألقى عرضاً في أكاديمية العلوم براندنبورغ ببرلين بتاريخ ٤ فبراير ٢٠١٤، تناول فيه موضوعاً جوهرياً: هل وجد فعلاً عصر إسلامي وسيط؟ ثم بدا له تطوير الفكرة لتنتشر على شكل كتاب. في الفصل الأول، يستشهد الكاتب بستة حجج ليفكك بها مصطلح «العصور الوسطى الإسلامية»، ويتجنب بها أضرار هذا المفهوم، وفي الفصل الثاني يقارن المؤلف بين الشرق والغرب من خلال التعرض لسبعة وعشرين عنصراً من عناصر المقارنة التي اختارها الباحث باور مرتبين ترتيباً ألفبائياً، من بين هذه العناصر نجد: الحمامات، والقرايميد، والأعياد، واليهود، والنقود النحاسية، وشعر الغزل، والطب، والعلوم الطبيعية، والدين، والتمدن الحضري، والطرق، والخوف من الأجانب. وقد استعان الباحث باور بهذه العناصر للمقارنة بين غرب ووسط أوروبا من جهة، وغرب آسيا من ناحية أخرى في فترة تسمى غصبا «العصر الوسيط المبكر». أما الفصل الثالث فيدور حول «البحث

ويأتي كتاب الباحث الأكاديمي الألماني توماس باور الجديد «لماذا لم يوجد عصر إسلامي وسيط؟» باعتباره أهم دراسة ظهرت مؤخراً باللغة الألمانية، تعيد الاعتبار لفترة «العصر الإسلامي الوسيط» وتنصف الإنتاجات المعرفية والحضارية التي وسمت تلك الفترة، وتوسع إدراك القارئ لهذا المفهوم ومجموعة من المفاهيم المرتبطة به. وإذا كانت كل هذه الدراسات تشترك في عنصر الدفاع عن تلك الفترة الطويلة من تاريخ الحضارة الإسلامية وتنفي عنها صفة الظلمة والتقهقر المعرفي والتراجع الحضاري، فإن كتاب الباحث الألماني باور يتميز بأنه في تناوله ما يسمى بالعصر الإسلامي الوسيط، ويجمع بين السرد التاريخي الجاد والمراجعة النقدية لمفهوم العصر الوسيط ومفهوم العصر الإسلامي الوسيط.

ولعل ما يثير في دراسة باور، هو وقوفه عند التأريخ للعصور باعتبارها تاريخاً أوروبياً، أي اختراعاً أوروبياً خاضعاً للمركزية الغربية ورائداً لعصر التنوير الأوروبي، على أساس التنمية والتطور والنهضة. وتوصف العصور الوسطى الأوروبية بأنها «العصر الوسيط، الذي عبر فيه الغرب المسيحي عن تفوقه وسيطرته. فقد أثار اهتمام الباحث باور مجيء المستعمر الأوروبي إلى إفريقيا مقتنعاً ألا تاريخ ولا ثقافة لهذه المنطقة. لكن باور يلفت الانتباه إلى أن هذه النظرة الأوروبية للتاريخ تتجاهل حقيقة أنه في إفريقيا وآسيا وأمريكا وفي سياقات إيديولوجية أخرى، يمكن أن يكون تاريخ التقييمات مختلفاً. ويمكن تحديد عصر الاضمحلال بذكر مجموعة من أهم الأحداث السياسية في فترة العصر الوسيط (العصرين المملوكي والعثماني): عام ١٤٥٣ فتح العثمانيون القسطنطينية، في عام ١٤٩٢ سقطت غرناطة، آخر مملكة إسلامية في شبه الجزيرة الأيبيرية. وفي عام ١٥٠١، سيطر الصفويون على إيران، وبعد ذلك بفترة قصيرة، ظهرت الإمبراطورية المغولية في الشرق. وفي عام ١٥١٧، غزا العثمانيون الإمبراطورية المملوكية، وفي نفس العام نشر مارتن لوثر رسائله الـ ٩٥. بعد غزو غرناطة تم طرد السكان اليهود والمسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية، وكان سقوط بغداد سنة ١٢٥٨، وغزو نابليون لمصر في ١٧٩٨. وفي الشرق، بعد فترة وجيزة من عام ١٥٠٠، تم توطين ثلاث إمبراطوريات في العالم الإسلامي:



بالانحطاط، ومؤكداً على أن للمفهوم سياقاً إيديولوجياً وسياسياً غير منصف.

يمدح المؤلف آداب الشرق بقوله بالقول إن آداب الشرق الأدنى بين القرن ١٢ و ١٩ تمثل أكثر آداب الإنسانية ثراءً وغنىً بالعبير والطابع الإنساني. لكن الغرب حذر من هذا الثراء باعتباره تاريخاً للتدهور والانحطاط في فترة ما قبل الاستعمار. فقد استنكرها المستشرقون واعتبروها إنتاجاً تافهاً، ذلك أن الشرق باعتباره حضارة هامشية تعاني من الانحطاط كان هو الموضوع الأساسي في الخطاب الاستعماري. لقد عمل المستشرقون على نشر فكرة الانحطاط للعصور الإسلامية الوسيطة، وعمل المسلمون بأنفسهم على تبني هذه الفكرة فرفضوا ماضيهم، وجلبوا بذلك الدعم الغربي وعملوا على تجميع نصوص تدل في رأيهم على أنها علامة على الانحطاط والتدهور.

يدحض توماس باور ببراعة مفهوم عصر الانحطاط ويؤكد على أن العالم الإسلامي، كان عمره ألف سنة من الإنجاز الثقافي والفكري. فقد تم تطوير التراث القديم الموروث من الإسلام المبكر في العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية في وقت لاحق. يظهر توماس باور اليوم كيف عاشت الحضارة القديمة في العالم الإسلامي مع المدن والعلوم المزدهرة. فلعدة قرون كانت المدن القديمة في الشرق تعيش ازدهاراً كبيراً مع الحمامات والكنائس والمساجد والمباني الحجرية الكبيرة. واستمر الأطباء في تقديم العلاج واستمرت العلوم والشعر والبلاغة وضرب النقود النحاسية، وثقافة البلاط: ففي الحياة اليومية من الشرق، والإنجازات الكلاسيكية التي لم تعرفها أوروبا الوسطى. وكانت مؤشراً على تحول في العالم الإسلامي الذي سرعان ما تبعه العصر الحديث.

لقد أنصف الباحث في هذا الكتاب الحضارة الإسلامية بالقول إن حضارة العرب قبل الإسلام لم تكن بدائية، ذلك أن محاور الحضارة الإسلامية الجديدة كان مقرها في المدن خارج جزيرة العرب. وعمل المستشرق الألماني توماس باور على تبيين إنتاج العصر الإسلامي الوسيط، وذكر أصنافاً كثيرة من هذه الإنتاجات: كتب الرحلات (ابن بطوطة)، الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، والتأليف المعجمي، والأشعار الصوفية، ومدح الرسول، وقصيدة البوصيري، وإنتاجات كثيرة في العلوم الطبيعية والطب والمعمار.

من جهتنا نعتقد أن ترجمة إلى اللغة العربية لهذا الكتاب ستعطي دفعة قوية للباحثين العرب من أجل إعادة النظر في مفهوم «العصر الإسلامي الوسيط»، فقد كانت هذه هي الغاية من إنجاز الباحث الألماني توماس باور لهذه الدراسة القيمة.

الكتاب: لماذا لم يوجد عصر إسلامي وسيط؟ إرث العصر القديم والشرق.
المؤلف: توماس باور.
اللغة: الألمانية.
دار النشر/سنة النشر: C.H. Beck oHG
ميونيخ، ألمانيا، ٢٠١٨. عدد الصفحات ١٧٥.

*** باحث في الدراسات الألمانية ومترجم/ الرباط، المغرب.**



في القرن التاسع عشر. لكن توماس باور يثير فكرة مهمة وهي أن الرحالة والموظفين المسؤولين عن الشؤون الاستعمارية وعلماء الأعراق شككوا في مسألة «انحطاط تلك الفترة»، فقد كان هناك عصر ذهبي في القرنين الثامن والتاسع الهجريين في العالم الإسلامي عندما ترجمت نصوص العلوم اليونانية والفلسفة إلى العربية والتي استطاع الغرب الاستفادة منها.

واقترعاً من الباحث باور بأن مفهوم «العصور الوسطى الإسلامية» غير دقيق، ويؤدي إلى استنتاجات خاطئة وأحكام مسبقة، كما أنه يتم استخدامه للتشهير حاملاً كل الدلالات السلبية، ويساهم في تعريب العالم الإسلامي، وهو يعمل من أجل الصالح الإمبريالي، ولا يقوم على أي أساس واقعي، كما أنه يعرقل رؤية الحدود الحقيقية للعصور، وأن انتقاد مفهوم «العصور الوسطى» (الأوروبي) وسيلة للدراسة العلمية، ينطلق توماس باور من السؤال المحوري: هل هناك في الشرق الأوسط تطور يماثل بطريقة واضحة الانتقال من العصور الوسطى في مناطق الإمبراطورية الرومانية الغربية؟ فيرفض التحدث عن «القرون الوسطى» بشكل عام، والعصور الوسطى الإسلامية، على وجه الخصوص؛ ذلك أن التحول الذي قاد أوروبا من العصر القديم إلى العصور الوسطى، لم يتواجد في الشرق، كما أن المعلومات التي يقدمها المؤلف فيما يتعلق باللغة والتطورات القانونية والخطابة والفلسفة في الثقافات العربية تفتح نوافذ جديدة ورؤى للقرآن. فالذين يصفون هذه الحقبة بالانحطاط يرتكبون خطأً كبيراً، ذلك أنهم يقيسونها بفترة العصر الوسيط في أوروبا. لقد عرفت المرحلة الإسلامية الوسيطة مناقشات ودراسات متباينة بين الباحثين قديماً وحديثاً، بينما لعب المستشرقون دوراً كبيراً في استنباط هذا المفهوم في القرن التاسع عشر. وهذا ما يؤكد عليه الأستاذ أحمد بوحسن والأستاذ جاسم الموسوي، وتزكية دراسة الأستاذ توماس باور الجديدة.

يثبت توماس باور أن مفهوم العصور الوسطى ليس مفيداً لتاريخ أوروبا، ولا لتاريخ منطقة الشرق وإفريقيا، لأنه تنقصه رؤية شاملة للمنطقة. لهذا نراه سائراً إلى مزيد من انتقاد مؤرخي الأدب العربي وباحثيه الحديثين لأنهم وصفوا الأدب العربي-الإسلامي في العصر المملوكي والعثماني بـ«الانحطاط»، مستغرباً الدوافع التي جعلت الأمة العربية-الإسلامية تتنكر لقرون طويلة من تاريخها الثقافي وتنعتة

المناطق في أفريقيا في الشبكة الإسلامية الاقتصادية والثقافية، والتي تمتد من شمال أفريقيا إلى الجبال العالية في آسيا الوسطى. يجادل فرانسوا كزافييه فوفيل François-Xavier Fauvelle، الذي قدم كتابه «Das goldene Rhinoceros» بعنوان ثانوي هو «أفريقيا في العصور الوسطى»، «Afrika im Mittelalter»، مقتنعاً أن القرون، التي يشار إليها عادة باسم «العصور الوسطى»، يتم توثيقها في إفريقيا، ولكن ليس بأي حال من الأحوال بصفتها «قرونًا مظلمة»، على العكس تماماً: «القرون الذهبية - ليست مظلمة، بل منسية».

وكان الباحث الألماني سيباستيان غونتر قد كتب بأن إنشاء شبكة واسعة من الجامعات في فترة ازدهار التعليم، قد أسهم في إضفاء الطابع المهني على التعليم الإسلامي في المناطق الشرقية من العالم الإسلامي في العصور الوسطى، ولكن فيما بعد أيضاً المغرب الإسلامي والأندلس. وقد أدت وظيفة هذه المؤسسات إلى تحقيق مستوى معين من التعليم العام في الإسلام في القرون الوسطى، كما طورت هذه المدارس الحوافز الاقتصادية والثقافية الاجتماعية (توفير السكن للفقراء) والاقتصادية (في المدينة التي تقع فيها الجامعات) والثقافية (جذب علماء وأساتذة بارزين) والتاريخية (أضرحة المانحين).

وجد الكلام الأوروبي عن الشرق باعتباره جامداً متخلفاً ومنحطاً صدها في الشرق الأدنى، ووجد من اعتقد به. وقد توجه نظر المؤرخين العرب إلى الحكم على حضارتهم الخاصة من خلال رأي الأوروبيين الذين يرجعون كل تصور يتواجد في الشرق الأدنى إلى الإسلام، وتوجب في العالم العربي دائماً الاسترشاد بالأفكار الغربية حين ننظر إلى التاريخ العربي. ومنذ القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين كان الغرب يحارب ضد الإسلام المنحط والمتقلب والمنحرف، وكانت حالات من سوء الفهم تلك نجدها عملياً في كل عدد من أعداد الجرائد اليومية الألمانية حتى يومنا هذا.

لكن ما يحزن الباحث باور أن الصورة العدائية الغربية التي ترى أسباب كل الشرور موجودة في تاريخ الإسلام تتطابق إلى حد كبير مع كراهية العرب والمسلمين لتاريخهم الخاص باعتباره عملية مستمرة من الانحطاط والتدهور. ومن اللافت للنظر عند مؤلف هذا الكتاب أنه ليس الإسلام التقليدي من العصور الوسطى، بل ممثلوه الحاليون من يقود حرباً ضد حضارتهم الخاصة متأثرين في ذلك بعلماء غربيين ومستشرقين. فأصبح معظم الباحثين العرب والمسلمين من أتباع نظرية التخلف.

ويتعجب توماس باور من أن الغرب اعتقد أنه نتيجة حقبة ألف عام من الانحطاط والتشدد الذي منع العالم الإسلامي من التطور يجب التغلب عليه بمساعدة الغرب وفق إيديولوجية متداولة في الشرق موروثاً عن الاستعمار الأوروبي مفادها أن العالم الإسلامي كان يعيش منذ القرن العاشر والحادي عشر في حالة تأخر وجمود. لذلك يرى ممثلو نظرية التخلف هذه، التي تركز عليها أطروحة هذا الكتاب، عدم وجود سبب لقراءة كتب هذه الحقبة أو الاعتماد عليها.

لقد أصبحت نظرية الجمود والتخلف في الشرق الأدنى بمثابة عقيدة في القرن التاسع عشر. وكانت الصورة المعتادة لانحطاط العالم الإسلامي التي يعتقد فيها كثير من المثقفين الغربيين، بل كثير من المثقفين في الشرق الأدنى وإفريقيا أن علماء ظلاميين استطاعوا أن يهيمنوا على المشهد، فجمدوا تحت سطوة التشدد كل فكر حر. وبدأ انحطاط مثير يستمر ألف عام، وكان كل هذا مبرراً للاستعمار الثقافي



الإسلام - تشريح الخوف أدريان شادكوفسكي

يوسف شحادة *

يقدم بروفيسور العلوم السياسية والأمنية، البولندي أدريان شادكوفسكي، كتابه الجديد «الإسلام - تشريح الخوف» استكمالا لما بدأه من مؤلفات عن الثقافة العربية الإسلامية، وقضايا الأمن والإرهاب. يعالج الكتاب مسألة الصراع الثقافي والحضاري بين الغرب والمسلمين من خلال تحليل أسس الإسلام ومقومات الثقافة العربية الإسلامية. ويتناول أزمة الهجرة في أوروبا، والصدام الثقافي الذي يزعم أنه يتجلى في أمور عديدة، منها وضع المرأة، ومشكلات انصهار المهاجرين المسلمين في المجتمعات الأوروبية، واشتداد حدة التطرف في جالياتهم، وعلاقاتهم الاجتماعية بالأوروبيين، والبولنديين منهم على الأخص. ومع أن ما كُتب حول الإسلام، والقضايا المتعلقة به، كثير ومتنوع، فما زال المفكرون البولنديون ينجذبون إلى هذا النوع من الكتابات لأسباب مختلفة، وكل له من وراء ذلك غايات محددة وأهداف معلنة، وغير معلنة. بيد أن خبرة شادكوفسكي في هذا المجال تجعل كتابه يبدو مفيدا للقارئ البولندي لما فيه من تحليل يلتزم الموضوعية في أغلب الأحيان، فيسعى إلى إخراج صورة أكثر واقعية للثقافة، التي يحرص على تسميتها بالثقافة العربية الإسلامية. وتتأتى خبرة المؤلف من وظيفته الحالية مستشارا للقائد العام لحرس الحدود البولندي، يُضاف إليها خبراته العلمية في مجال الأمن العالمي، وفي مقدمها الأمن وحماية الطيران المدني. ولعل كتبه الثمانية كانت ثمرة الخبرات المكتسبة التي دعمها بزياراته البحثية إلى بلدان الشرق الأوسط، ومنها اليمن وعمان والإمارات العربية المتحدة وسوريا ولبنان والأردن وتركيا.

الهجري. ويمكن القول إن شادكوفسكي يقدم صورة شاملة وافية عن النبوة المحمدية، وبدايات تشكل الإسلام، وظهوره كقوة كبيرة مؤثرة في بلاد العرب. وقد اعتمد على مصادر قيمة من كتب المستشرقين البولنديين والأوروبيين اتسمت بنقل الوقائع بشكل لا يحيد كثيرا عن الروايات الإسلامية الرسمية. وتشغل صورة الرسول وشخصيته مكانا مهما في هذا الفصل، بما في ذلك الحديث عن ملامحه وأوصافه كما وردت في كتب السيرة. ويناول حياة النبي وسنته، وزهده، ومكارم أخلاقه، ويستطرد متحدثا عن حب المسلمين لرسولهم، وإجلاله، واستعدادهم للموت في سبيل نصرته، فهو يمثل المثل الأعلى والقُدوة الحسنى لهم. بيد أنه يقحم مشكلة الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول التي نشرت في الدانمارك وفرنسا، محاولا إثبات أن ردة فعل المسلمين على التشهير برسولهم قد تدفعهم إلى أعمال غير محسوبة مثل الهجوم الدموي على صحيفة شارلي إبدو الفرنسية. لا بد من الإشارة هنا أن إقحام هذا الموضوع لا يستقيم من ناحية منهجية، فالقفز المفاجئ من الحديث عن حياة الرسول، وقيمته، وإجلال المسلمين له، إلى وقائع حديثة نعيشها الآن يجعل البحث غير منسجم زمنيا، فكان الأجدر بالمؤلف أن يطرق هذا الموضوع في فصل آخر.

يحوي الفصل الثاني مباحث شديدة الأهمية، تتناول الأسرة العربية المسلمة التي تشكل نواة المجتمع، والأساس الذي ترتكز عليه العلاقات الاجتماعية. فهي تقوم بوظائف متعددة يأتي على رأسها استمرارية الحياة، وتربية الأطفال والناشئة على الحفاظ على قيم المجتمع ووتقاليد وأعرافه وميراثه الثقافي. يشرح الكاتب الأسس التي تقوم عليها الأسرة المسلمة مؤكدا قيمها التي تتميز بها عن

الإسلام، حيث يتطرق المؤلف إلى حياة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) منذ ولادته في عام الفيل، مستذكرا قصة هجوم إبرة الأشرم على مكة. ثم يسرد رحلة النبي إلى الشام ولقاءه الراهب بحيرة، ونزول الوحي وبدايات الإسلام، والظروف التي سادت حياة المكين وأهل يثرب، والعلاقات الرابطة بين المهاجرين والأنصار ويهود المدينة. يحتوي الفصل على مباحث مهمة تشرح أركان الإسلام الخمسة، وكذلك أركان الإيمان في المفهوم الإسلامي. يقدم الكاتب شرحا شاملا عن القرآن بادئا بالتعريف بمعناه اللغوي، وظروف نزوله على محمد (صلى الله عليه وسلم) في أثناء تعبدته في غار حراء. وقد سعى لتبيين أهميته العظمى، كونه الكتاب المسير للمجتمعات الإسلامية، مؤكدا قوة تأثيره في كل تفاصيل حياة المسلمين، لا بل في حياة الأمم قاطبة. ونجده يعتمد على ما قدمه أحد أهم المستشرقين البولنديين، مترجم معاني القرآن إلى البولندية - يوسف بيلافسكي مشيرا إلى أهمية الفرقان: «نظرة سريعة في التاريخ تكفي لتثبت أن أي كتاب آخر لم يمتلك عمليا مثل هذا التأثير الذي امتلكه القرآن في المجتمعات الإنسانية وفي حياة الإنسان». ويصل إلى استنتاج صائب هو أن دراسة التاريخ العالمي، وعلى الأخص تاريخ المجتمعات المسلمة على مدى القرون الأربعة عشر السالفة غير ممكنة من دون معرفة القرآن. هذه المعرفة لا تكون بتلاوته وحسب، لأن القرآن يختص ببعد داخلي لا يمكن لأي تحليل أدبي أو فقهي أن يظهره إلا بالفحص عميقا في رموزه وتدبره. يولي المؤلف أمور المسلمين الأوائل وأيامهم اهتماما كبيرا، فلا يغفل في سرده عن تفاصيل كثيرة، منها على سبيل المثال كيف تم الاتفاق على إيجاد تاريخ إسلامي سمي لاحقا بالتقويم

يتحدث شادكوفسكي في مقدمة كتابه عن الصدام الحضاري بين الثقافتين العربية الإسلامية والليبرالية الغربية، معرجا على آراء صاموئيل هنتنغتون - صاحب كتاب «صدام الحضارات» الشهير - حيث يرى أن صدام الحضارات في أزمة الهجرة ليس صدام الإسلام والمسيحية وفق منظور هنتنغتون الكلاسيكي، بل هو شكل أكثر تقدما من أشكال الاستيلاء على الفضاء الليبرالي للديمقراطية والحريات والتسامح والتحرر. ويؤكد المؤلف أن كتابه يشكل محاولة للإجابة عن المسألة البحثية الأساسية المتضمنة في السؤال التالي: هل المخاوف الأمنية المرتبطة بموجة هجرة المسلمين هي مخاوف مسوغة؟ ويتساءل: «هل ثمة شيء يُخاف منه؟» قاصدا بذلك الخوف على أمن المجتمعات الأوروبية وثقافتها. وإن كان المؤلف لا يجب بشكل مباشر على هذا التساؤل، فهو يشير إلى القوة العظيمة للدين في نفوس المؤمنين به، حيث يشكل ذلك الدين هويتهم، فيغدو الصراع الديني صراع هوية. وهذا ما يستدعي المخاوف المتعاضمة لدى أبناء المجتمعات المستقبلية للمهاجرين المنتمين إلى ثقافة مغايرة مرتكزة بالأساس على هوية دينية. ويشير المؤلف إلى أن هيمنة الأفكار المسبقة، والميل إلى التعميم بشكل خاطئ، يشكلان الصورة السيئة للأخر الغريب. وينطلق شادكوفسكي من فرضية صحيحة أساسها أن جهل الإنسان بالشيء تجعله يخافه، فيصوغ استنتاجا مقنعا يقول بأن معرفة أي دين آخر، وأية ثقافة أخرى، تتطلب جهدا بالغا، وقبول الاختلاف يمثل بحد ذاته تحديا يتطلب أولا الاعتناق من الخوف. ولا يخفي المؤلف مدى خطورة هذا التحدي وشدته. ينقسم الكتاب إلى أربعة فصول، نجد في أولها لمحة شاملة عن تاريخ



سلبيا عبّر عنه برفض هؤلاء المهاجرين بسبب التخوف من ثقافتهم التي تشكل خطرا كبيرا على الثقافة المسيحية البولندية، وعلى ثقافة أوروبا الليبرالية. يؤكد شادكوفسكي أن الدراسات البحثية أظهرت بشكل واضح أن معظم البولنديين يقفون مع حكومتهم الحالية التي ترفض استقبال اللاجئين على أراضيها حسب الحصة التي اقترحتها الاتحاد الأوروبي، ووافقت عليها الحكومة السابقة. ويشرح المؤلف أن استطلاع رأي البولنديين (في عام ٢٠١٥) بخصوص نظرتهم إلى الإسلام والمسلمين، أثبت أنهم منقسمون إلى مجموعتين؛ الأولى ترى أن الإسلام يرتبط بالعنف والإرهاب وعدم تقبل الآخر، بينما المجموعة الثانية لا ترى أن الإسلام مرتبط بشكل مباشر بالعنف، ونصف هذه المجموعة يعتقد أن غالبية المسلمين ينددون بالإرهاب، ويختلف النصف الآخر في الرأي لكن أكثره يرى أن الإسلام يشكل تربة صالحة للإرهاب أو التطرف.

يجمل المؤلف ما توصل إليه من استنتاجات مؤكدا أن الثقافة العربية الإسلامية لا يمكن عدّها وحدة مترابطة، ولا يمكن النظر إليها على هذا الأساس، فثمة جماعات إسلامية مختلفة في ما بينها، بل متناحرة أحيانا، تتصارع حول شكل الهوية الإسلامية الحقيقية. بيد أن الأوروبيين ينظرون إلى المهاجرين المسلمين الوافدين إليهم على أنهم كتلة واحدة متماثلة، فيعاملوهم كممثلين للإسلام بشكل عام. ويعتقد المؤلف أن قسما كبيرا من الأوروبيين يرون أن انصهار المسلمين غير ممكن، لذلك ترفض مجموعة من دول أوروبا الوسطى، مثل: بولندا وهنغاريا والتشيك وسلوفاكيا، قبول اللاجئين مدعية حماية ثقافتها الوطنية من الثقافة المغايرة الوافدة. وما يؤخذ على المؤلف أنه يستخدم دائما في حديثه كلمة المهاجرين بدلا عن اللاجئين «كما يفعل رافضو اللاجئين تحايلا على المصطلح الحقيقي» وهو بذلك يتغافل عن الفرق القانوني الكبير بين المصطلحين. لقد كان على الدول المشار إليها سابقا القبول باستقبال اللاجئين، وحمايتهم حسب القوانين الدولية، علما أن حصص تلك الدول منهم ضئيلة. وثمة إصرار من الكاتب على استخدام كلمة «انصهار» بدل كلمة «اندماج» التي عادة ما تُستخدم في قوانين اللجوء، وغني عن القول إن المعاهدات الدولية لا تطلب من اللاجئين الانصهار، بل تكفل لهم الحفاظ على ميراثهم الثقافي. لكن رغم هذه الهنات، يمكن القول إن مؤلف «الإسلام» تشریح الخوف» سعى إلى أن يقدم في أطاريحه صورة للإسلام أشد موضوعية وأكثر واقعية، مشددا على المخاوف التي شغلت بال الأوروبيين من جراء اشتداد حدة اللفظ الكبير الذي رافق مسألة الصدام الحضاري بين الشرق والغرب.

عنوان الكتاب: الإسلام - تشریح الخوف

المؤلف: أدريان شادكوفسكي

الناشر: ديفين DIFIN

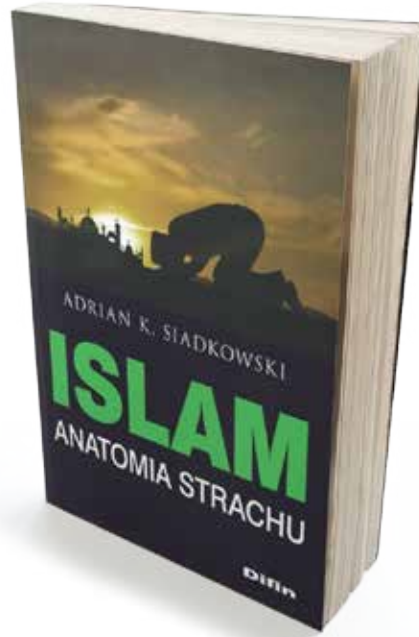
مكان النشر: وارسو - بولندا

سنة النشر: ٢٠١٨

لغة الكتاب: البولندية

عدد الصفحات: ١٧٦

* أكاديمي فلسطيني مقيم في بولندا



اجتاحتها موجات التطرف الإسلامي، والوقوف على الأوضاع الراهنة في سوريا والعراق. على سبيل المثال يؤكد أنه في حالة «اللامعيارية» الحاصلة في خضم الصراع المستمر في سوريا يصبح تحقيق الحاجات الأدنى رتبة أولية قصوى، وتراجع القيم العليا إلى الحضيض. يزعم الكاتب أن المواقف المبطنة القوية المتأتية من التشدد الديني يمكنها أن تقضي إلى صراعات مجتمعية شديدة الخطورة، وتصبح مصدرا للامعيارية الاجتماعية. وتتجلى هذه المواقف على هيئة سلوك قائم في علاقات ممثلي الحضارة العربية الإسلامية والعالم الغربي بما يتعلق بالرموز الدينية. يصرح المؤلف أن تفسير القرآن تفسيرا صحيحا مهم جدا في درء كثير من التآويل التي قد تبتعد عن المعنى المقصود. ويؤكد أن ترجمة القرآن إلى لغة أخرى يمكن معاملتها على أنها نص مساعد يتيح فهم آيات الكتاب الحكيم ومعانيها، لكنها لا تغني عن تدبر القرآن بلغة الضاد. ويضرب مثلا يؤيد به كلامه ذاكرة النسخة الإنجليزية لمعاني القرآن في جامع السلطان قابوس الأكبر بمسقط، حيث يظهر العنوان متضمنا كلمتي «معاني القرآن كما يلي: The Meaning of the Glorious Qur'an». يتتبع

عن البحث والتحليل النظري أحيانا، ليدخل في تفاصيل مختلفة عن تطبيقات حدود الشريعة في بعض المجتمعات المسلمة، لينتقل بعدها إلى نشاط الجهاديين وأعمالهم المتطرفة، والإرهاب والعمليات الانتحارية، ومحاولاتهم تسويغها من منطلقات دينية. ويفرد مبحثا خاصا لما سمي بـ «الدولة الإسلامية»، فيصفها بالخلافة الإرهابية شارحا المخاطر الكبيرة التي تمثلها، إذ أنها لم تقف عند حدود سوريا والعراق، بل جاوزتها إلى أوروبا، وبولندا التي انضم بعض من مواطنيها ليقاوم في صفوف داعش. يخصص الكتاب الفصل الأخير لتحليل الأزمة التي سببها المهاجرون في أوروبا على أساس مفهوم «التسييس الأمني»، وهذا المصطلح نشأ عما سُمي بـ «مدرسة كوبنهاغن». وقد ظهرت في العلاقات الدولية سياسات متطرفة تسمح باتخاذ تدابير طارئة، واستخدام وسائل استثنائية، باسم الأمن، للتغلب على الأزمات. ويبين الكاتب أن النقاشات الفكرية في بولندا وأوروبا حول المهاجرين المنتمين إلى الثقافة العربية الإسلامية أخذت منحى

غيرها من ناحية الترابط العائلي الكبير الذي يتعدى حدود الأسرة إلى منظومة الأقارب، حيث يتقاسم أفرادها الحزن والفرح، ويتعاضدون في الشدائد والمحن. ونجد نظرة إيجابية إلى سمات حسنة تتمتع بها العائلة المسلمة، منها احترام الصغير للكبير، حيث تلقى كلمتهم أدنا صاغية وتُحترم قراراتهم. ويلتفت المؤلف إلى نظام الزواج الشرعي وموضوع المحارم، حسب ما هو مفصل في القرآن الكريم، لكنه يستطرد ليطرق باب حقوق المرأة ووضعها في المجتمع المسلم. عادة ما تكون هذه القضية موضوع جدل ونقاشات موسعة في الأدبيات الأوروبية التي غالبا ما ترى أن حقوق المسلمات ناقصة. ويُضرب المثل على ذلك في مسألة عدم مساواة المرأة بالرجل في الميراث، وقضية عدم الاعتراف بشهادتها، بشكل مساو للرجل، في المحاكم. وهذا ما يشير إليه الكاتب بشكل محايد ناقلا بعض الاقتباسات من المفكرين الأوروبيين، بيد أنه يبرز في المقابل موقف الرسول الكريم من المرأة في حضه على احترام حقوقها، وصونها، ومعاملتها أفضل معاملة، ما جعل وضعها الاجتماعي متفوقا بحسناته مما كان عليه قبل الإسلام. يتناول المؤلف بالشرح مسألة أخرى مهمة ملخصها أن الحديث عن وضع الذكر والأنثى في الثقافة العربية الإسلامية يجب أن يأخذ بالحسبان الفروق بين الرجل والمرأة على أساس الواجبات. فللمرأة وظائف ينبغي لها أن تقوم بها، وهي تقليديا تخص رعاية الأطفال والقيام بأعمال المنزل، بينما يكون الرجل مسؤولا عن توفير المال ولقمة العيش لأسرته. وفي مبحث آخر يطرح الكاتب مسألة عملية تربية الأطفال، وتدريبهم على الإسلام، وهو بذلك يقدم وصفا حقيقيا على تنشئة الأطفال على حب دينهم والسير على هداية. ويصل إلى استنتاج مهم يبين الفرق بين المسلمين والأوروبيين في التربية، موضحا أن أغلب الآباء في الغرب يبدؤون، منذ السنوات الأولى من عمر أبنائهم، بتعليمهم الاعتماد على أنفسهم والاستقلالية، ويوصونهم بالقيام بأعمال منزلية، ويرغبونهم في اتخاذ القرارات. والغاية من وراء ذلك تدريبهم على عدم الاعتماد على الأهل بشكل كامل، وعدم التبعية لهم بعد سن البلوغ. لكن الآباء العرب، وخاصة الأمهات، يفضلن «كما يقول المؤلف» أن يخضع الأطفال لهن، في محاولة لربطهم بهن عاطفيا.

يضع المؤلف عنوانا للفصل الثالث يشمل عنوان الكتاب الرئيس على النحو التالي: «الإسلام السياسي المحارب - تشریح الخوف». لا شك أن هذا العنوان يوحي بالكثير، فالمشكلة إذن ليست بالإسلام كدين رباني، ولكن بمن يجعل منه حزبا سياسيا، ويستغل نصوصه، ويُسَيِّسها، لمصالح دنيوية أو أطاريح متطرفة تثير الخوف وتجنح إلى الحرب. ومن الواضح أن شادكوفسكي يدرك تماما فحوى رسالة الإسلام القائمة على العدل والاعتدال، لذلك نجده يضع تحت ذلك العنوان ترجمة لعاني جزء من الآية ١٩٠ من سورة البقرة ليدل على أن الإسلام ينهي عن الاعتداء والعدوان: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا...». يفرد المؤلف مبحثا قيما يحل فيه ما سُمي بـ «اللامعيارية الاجتماعية»، ومصادرها الدينية، وحسب عالم الاجتماع إميل دوركايم، واضع هذا المصطلح، تقوم «اللامعيارية» في حال ضعف المجتمع، وانخفاض قدرته على التوجيه الأخلاقي لأفراده، فيغدو التزامهم بالمعايير المجتمعية محدودا، وتتشكل الفوضى. ولعل ما يرمي إليه شادكوفسكي من خلال مفهوم «اللامعيارية»، يتلخص في إضاعة جوانب من الصدام الاجتماعي الثقافي في البلدان التي

إصدارات عالمية جديدة

الناشر: منشورات لارتيور. باريس. فرنسا.
تاريخ النشر: ٢٠١٨
عدد الصفحات: ٥٤٤ ص
اللغة: الفرنسية.

يستعرض هذا الكتاب الذي حقق أعلى المبيعات، قصة قارة وثقافة يمسك بها الانتحار المتمثل في تراجع معدلات المواليد والهجرة الهائلة وانعدام الثقة والكراهية الذاتية كل هذه العوامل وغيرها جعلت الأوروبيين غرباء عن أنفسهم وغير قادرين على مقاومة التغييرات العالمية التي مروا منها، في أغلب الأحيان دون أن يستشاروا حولها، لأن الأنظمة الليبرالية هي التي تقرر مصيرها. هذا الكتاب ليس مجرد تحليل للحقائق الديموغرافية والسياسية، بل بالتحديد تقرير ماهر على مدى عقود ويخص القارة بأكملها وفي الأماكن التي وصل إليها المهاجرون وقبلوا داخل مجتمعاتها، والأماكن أيضا التي وصلها ورفضوا داخلها. يستند الكتاب إلى العديد من الأبحاث والوثائق، بهدف إبراز الفشل المأساوي والواضح للتعددية الثقافية، بدءا من كارثة لامبيدوزا إلى وقائع مالمو. هذا التقصي الشامل والعميق قام به المؤلف في برلين وباريس وروما وأسكندنافيا والجزر الإيطالية والبلقان في اليونان.

ينهي دوجلاس موراي كتابه برؤيتين لأوروبا على المدى المتوسط، واللتين سترسمان صورتين محتملتين للقارة الأوروبية بحلول عام ٢٠٤٠.



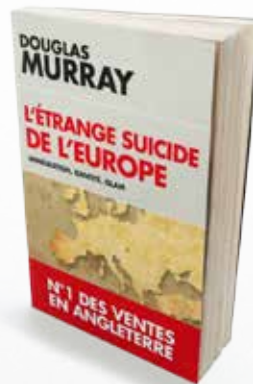
الكتاب: لغة وسائل الإعلام
المؤلف: إنجريد ريوكرو
الناشر: منشورات لارتيور. باريس. فرنسا.
تاريخ النشر: ٢٠١٨
عدد الصفحات: ٥٢٠ ص
اللغة: الفرنسية.

يتوغل كتاب لغة وسائل الإعلام في عالم صناعة الخبر والرأي العام، محللا طريق استعادة الصحفي صيغ زملائه، ليردها



الكتاب: اقتصاد الدواء
المؤلف: فليب أبيكاسي ونثالي كوتيني
الناشر: منشورات لاديكوفيرت. باريس. فرنسا.
تاريخ النشر: ٢٠١٨
عدد الصفحات: ١٢٨ ص
اللغة: الفرنسية.

إن الوزن الاقتصادي العالمي لصناعة الأدوية - أكثر من تريليون دولار من المبيعات - يؤجج شهية الأسواق المالية. لكن رهانات إنتاج الدواء تتجاوز بكثير المشاكل الصناعية المعتادة. الابتكار يجلب الأمل من حيث تحسين الرفاه أو تفادي الوفيات. الإنتاج الكافي والوصول إلى العلاج من أهم قضايا الصحة العامة؛ تعتبر سلامة وكفاءة المنتجات بأسعار معقولة من مسؤولية السلطات العمومية ومع ذلك، هل نعرف حقا الآليات الاقتصادية التي تستجيب بها شركات الأدوية والسلطات العمومية لهذه القضايا؟ يهدف هذا العمل إلى تحليل ظروف الإنتاج والتوزيع، من حيث الأسعار، ومتطلبات الجودة، وسهولة الوصول وفعالية الدواء. كما يهتم باستراتيجيات الفاعلين كلهم حتى وإن بدت مصالح بعضهم متباعدة ومتباينة أحيانا، فإنها مع ذلك توجه من خلال نظام عالمي (نموذج الإنتاج) المتغير باستمرار والمنظم تنظيما معقدا.



الكتاب: الانتحار الغريب لأوروبا
المؤلف: دوجلاس موراي

أحدث الإصدارات باللغة الفرنسية
(سعيد بوكرامي)



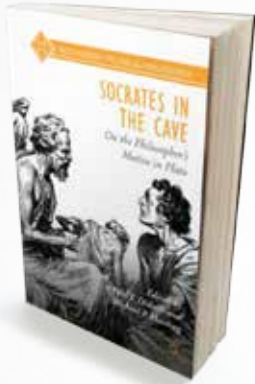
الكتاب: كيف انهارت الإمبراطورية الرومانية
المؤلف: كايل هاربر
الناشر: منشورات لاديكوفيرت. باريس. فرنسا.
تاريخ النشر: ٢٠١٩
عدد الصفحات: ٥٤٤ صفحة
اللغة: الفرنسية.

كيف انتقلت روما من مليون نسمة إلى عشرين ألف نسمة فقط أي بالكاد ما يكفي لملء زاوية الكولوسيوم؟ ماذا حدث عندما مات ثلاثمائة ألف شخص من أصل خمسمائة ألف بسبب الطاعون الدملي في القسطنطينية؟

لم يعد بوسعنا أن نروي قصة سقوط روما كما لو أن البيئة (المناخ، البكتيريا الميتة) ظلت مستقرة. كانت الإمبراطورية المتأخرة تعيش لحظة حاسمة من التغيير: نهاية المناخ الروماني الأمثل، الذي كان مناخا معتدلا ونعمة لمنطقة البحر الأبيض المتوسط بأكملها. لكن تغير المناخ المفاجئ ساهم في تطوّر الجراثيم، مثل يرسينيا بيستيس، جرثومة الطاعون الدملي. لكن «الرومان كانوا أيضا شركاء في تأسيس بيئة من الأمراض التي ضمنت خسارتهم». وكانت الحمامات العامة تغلي بالجراثيم، وكانت المجاري راقدة تحت المدن. وكانت صوامع القمح مكتظة بالفئران؛ كما سمحت الطرق التجارية التي تربط الإمبراطورية بأكملها بانتشار الأوبئة من بحر قزوين إلى جدار هادريان وبفعالية لم يشهد التاريخ مثيلا لها. لقد حان أوان الانهيار الشامل. وأمام هذه الكوارث، اعتقد سكان الإمبراطورية أن نهاية العالم قد حانت. في هذا التوقيت بالذات انتصرت الديانتان المسيحية، والإسلام، على الأديان الوثنية.

إصدارات عالمية جديدة

الفلسفي والاستدلال الخطبي عنده. ويراجع الكتاب النظرة السائدة عن هوبز التي تذهب إلى أنه بعد أن تبنى نظرة «علمية» للفلسفة ابتداء من سنوات الثلاثينات من القرن السابع عشر، طلق تطبيق النزعة الإنسانية ومعها الخطابة والبلاغة وفنون القول ... والكتاب تلطيف لهذه النظرة المشتركة بالتركيز على سنوات هوبز الإنسانية مدرسا خاصا ومترجما للأعمال الكلاسيكية، بل وتابعا لأرسطو واضع علم الخطابة، وبالجملة، الكتاب تأكيد على حضور البعد الخطابي والبلاغي في الفلسفة السياسية من خلال الحجج الخطبي أو البلاغي.



عنوان الكتاب: سقراط في الكهف
اسم المشرفين على الكتاب: بول. ج. ديدوش
وميكائيل. ب. هاردينغ
دار النشر: بالغريف ماكملان
سنة النشر: ٢٠١٩
لغة النشر: الإنجليزية
ملخص الكتاب:

موضوع «الكهف» موضوعة أثيرة في الفلسفة: منذ كهف أفلاطون إلى كهف فيتجنشتاين، مروراً بحديث الفيلسوفين الألمانيين فريدريش نيتشه وهانس بلومبرغ والفيلسوفة الألمانية الأمريكية حنة أرندت عن «الكهف» وعن فلسفته وعن الاحتباس فيه وعن إمكان الانفلات منه. وهذا الكتاب - ذو العنوان المضلل بعض الشيء - مساهمة في استجلاء أمر الكهف عند أفلاطون؛ بمعنى أنه استمرار لدواعي حضور سقراط وأوجه هذا الحضور - الخفي منه والبدوي - في كتابات أفلاطون. فهو تحقيق في صورة سقراط في كتابات أفلاطون - سقراط هذا الذي لم يكتب شيئاً، بتعلة أن من شأن الكتابة - التقييد - أن تجمد الفكرة وأن تحنطها، وذلك بدل أن تترك الفكرة حية في حوار موصول ... من هو سقراط أفلاطون؟ ومن هم محاوروه؟ وما هي دواعي إجراء الحوار معهم؟ وما هي محاور هذه الحوارات؟ للإجابة عن هذه الأسئلة وأسئلة أخرى تضافرت جهود العديد من المتخصصين في تأليف هذا الكتاب الجماعي الضافي والشافي.

ملخص الكتاب:

اقترن اسم مدينة فرانكفورت الألمانية بمدرسة فلسفية عتيدة هي «مدرسة فرانكفورت» أو «المدرسة النقدية»، وذلك عبر أجيال من الفلاسفة وعلماء الاجتماع الذي تخصصوا في «نقد المجتمع» الغربي. وقد بلغ عدد هذه الأجيال اليوم أربعة عن طريق التلمذة المتسلسلة: من أدورنو وهوركهايمر (الجيل الأول) إلى الجيل الرابع (راينر فورست)، مروراً بالجيل الثاني (آبل وهابرماس) والجيل الثالث (هونيث وغيره). ويدور هذا الكتاب الجماعي على أحد أبرز ممثلي المدرسة النقدية الذي تميز بنظريته في الاعتراف - الفيلسوف والباحث الاجتماعي أكسيل هونيث (١٩٤٩-). وتكمن أهمية الكتاب في أنه لا يكتفي بتوصيف النظرية، ولا بتحليلها، وإنما أيضاً بإلقاء نظريات نقدية عليها، لا سيما على جانبين: «نظرية الاعتراف» و«نظرية الحرية الاجتماعية» وما كان هذا النقد من أجل التخلي عن نظرية الاعتراف، وإنما إثرؤها وتحيينها على ضوء الأزمة الحالية.



عنوان الكتاب: الفلسفة والخطابة وتوماس هوبز
اسم المشرف على الكتاب: تيموتي رايلر
دار النشر: أوكسفورد
سنة النشر: ٢٠١٩
لغة النشر: الإنجليزية

ملخص الكتاب:

توماس هوبز (١٥٨٨-١٦٧٩) فيلسوف إنجليزي شغل الناس حيا وميتا، لعنه الكثير في حياته بسبب واقعيته العنيدة - أو ليس هو صاحب إحدى أشهر العبارات في تاريخ الفلسفة السياسية: «الإنسان ذئب لأخيه الإنسان»؟ - كما لعنوه في مماته بسبب ما اعتبروه دفاعاً منه على الحكم المطلق. وهذا الكتاب لا يلعن ولا يطوب، ولا يدنس ولا يقدس، بل يفحص ويدرس جانبا مهمشا من جوانب علم هوبز المدني [لفلسفة السياسية] هو الصلة بين الاستدلال

المرّة تلو الأخرى، دون التفكير بكلماتهم، عن طريق التقليد الأعمى، مستنسخاً العبارة وشروط إنتاجها التي تتضمن حكما محددًا على الأحداث. وعندما يأخذ وجهات نظر موضوعية واضحة الآراء التي يمكن تحديدها بوضوح في وجهات نظر خاصة بتيارات فكرية، فإنه يساعد على انتشار رأي مصنوع من التحامل والصور النمطية والافتراضات التي تشكل أساس معتقدات مجتمعنا؛ لأنه إذا كانت لغة الصحفي تعمل مثل النافذة المشوهة التي تظهر من خلالها الحاضر، فإنها أيضاً نافذة خادعة مفتوحة على الماضي والمستقبل. إن تحليل الخطاب الصحفي هو، بطريقة ما، نوعاً من تحيين لوعي مجتمعنا حيث يبدو كل شيء غير منطقي.

وتعكس لغته الانحلال والتفسخ الحالي للكلمة، ويعني، ما يجعل العلاقات الإنسانية ممكنة، لكنه يبلور أيضاً نموذج التفكير في مجتمعنا: تحمل كلمة الصحفي جميع الأحكام المسبقة في عصرنا هذا، كل هذه الحقائق التي تعد بدايات، على الرغم من عدم إثباتها أبداً، بدءاً بالتقسيم الاعتباري بين الخير والشر، والتسلسل الهرمي الأخلاقي المفروض من طرف الأنظمة السياسية، والرؤية المسبقة لمعنى التاريخ، الخ.

إن الكتاب رصد وتحليل ونقد للخطاب الصحفي من زوايا متعددة ومتجددة.

*** ** *

آخر الإصدارات باللغة الإنجليزية (محمد الشيخ):



عنوان الكتاب: أكسيل هونيث ونظرية الاعتراف النقدية
اسم المشرف على نشر الكتاب: فولكر شميتز
دار النشر: بالغريف ماكملان
سنة النشر: ٢٠١٩
لغة النشر: الإنجليزية

حالياً في الأسواق.. مجلة التفاهم

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ

الإسلام والرسالة العالمية
عبد الرحمن السالمي

مدن وثقافات

الحياة الثقافية في بغداد في التراث العربي الإسلامي:
عصر السيادة الإسلامية – عمرو عبدالعزيز منير.

الإسلام والعالم

– اللاهوت المسيحي في ضوء الإسلام – طوبيا سبيكر.

المحاور

– مقولة الدين الواحد في الفكر الإسلامي – محمد المنتار.
– عالم الغيب وعالم الشهادة: قراءة في كتب المفكرين القدامى – محمد إدريس.
– العلاقات بين الأديان عن العامري والبيروني – منى أحمد أبو زيد.
– الديانات الإبراهيمية من الاختلاف إلى الائتلاف – رضوان السيد.
– معنى وحدة الدين وديانات التوحيد في تاريخ الإنسانية – محسن الخوني.
– نظرية الديانات العالمية عن علماء الدين الغربيين – عز الدين عناية.
– وحدة الدين والقيم الأخلاقية العالمية – محسن العوني.

دراسات

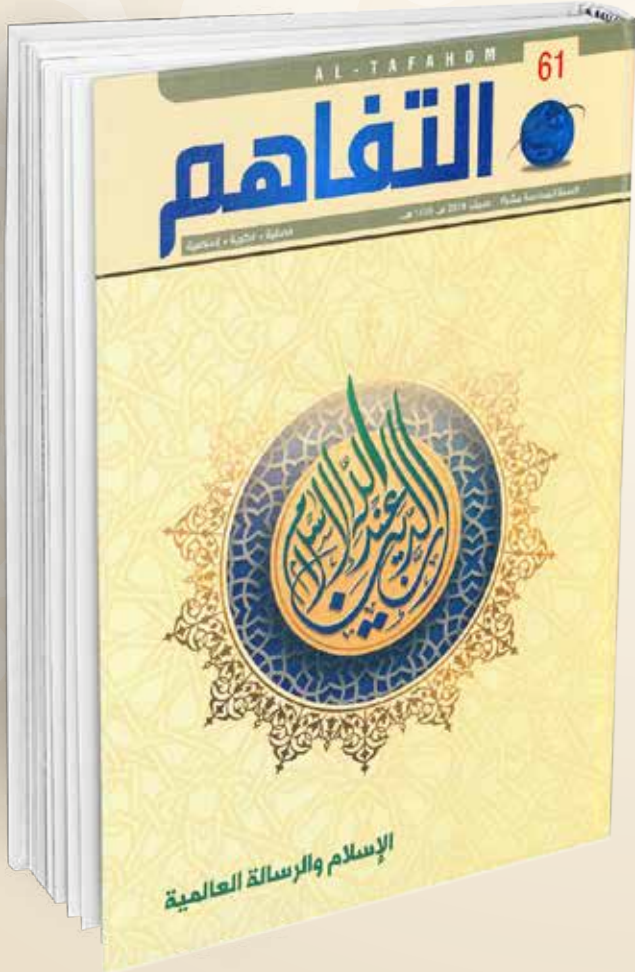
– في تجديد الفقه الإسلامي وأصوله: أهمية التنظير المقاصدي – محمد شهيد.
– نحو أصول فقه متجدد: دراسة تطبيقية في محاولات الأصوليين (الشاطبي نموذجاً) بلخير عثمان.
– النزعة التوفيقية الدينية في مدرسة الإسكندرية الفلسفية القديمة (أوريجين نموذجاً) مصطفى النشار.

وجهات نظر

– التنسيقية والنقدية في الفكر الفلسفي العربي المعاصر (المغرب نموذجاً) – سعيد بنسعيد العلوي.
– التسامح في الفلسفة الغربية: قراءة سوسيولوجية في تفكيكية جاك دريدا – محمود أحمد عبدالله.
– المفهوم الليبرالي للتعددية الثقافية – ياسر قنصوه.

آفاق

– فلاسفة الإسلام وطريق الحرير – عبد الرحمن السالمي.
– أوروبا والإسلام: مملكة الكاهن يوحنا (الحقيقة – الأسطورة – المغزى) – حاتم الطحاوي.
– مدخل فقه الحياة لتأسيس منظومة الزواج – سوسن الشريف.



النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها.

مجلة التفاهم هاتف : ٢٤٦٤٤٠٣١ - ٢٤٦٤٤٠٣٢ ، فاكس : ٢٤٦٠٥٧٩٩ +٩٦٨

البريد الإلكتروني : tasamoh@gmail.com - al.tafahom@gmail.com - www.altafahom.net